القسم الأول

الصراع بين الفرس والإغريق:-

إن تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ليس سوى تاريخ الإنسانية ذاتها منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر؛ فخلال هذه الفترة احتكت العقول والأفكار، وتضاربت الغايات ومسبباتها، وبدت فيها المطامع مفضوحة عارية، وقامت الحروب الدامية، واختفت دول وممالك وامبراطوريات وظهرت أخرى على أنقاضها، واندثرت أنظمة وحضارات لتحل محلها مدنيات وثقافات جديدة مغايرة. وفي زخم هذه الأحداث والتغييرات الهائلة، قام الصراع بين شقي العالم في عصور التاريخ المختلفة : القديم، والوسيط، والحديث .

ومن أهم الفترات في العلاقة بين الشرق والغرب خلال العصور الوسطى هي فترة الحروب الصليبية والتي تكوّن - في واقع الأمر- دوراً رئيساً من أدوار الصراع العتيق بين الشرق والغرب؛ الذي بدأ منذ أقدم العصور فيما عُرف بالحروب الميدية بين الفرس والإغريق منذ القرن الخامس ق.م، والذي انتهى بقضاء الإسكندر الأكبر على دولة الفرس. وأعقب ذلك ظهور الرومان على مسرح الأحداث، وتوسعهم في الشرق، وانتزاعهم السلطة من الإغريق بعد معارك عنيفة حملت روما بعدها لواء الكفاح في الغرب، وورثت عن الإغريق سلطانهم ونظمهم وحضارتهم

ويُعد الفرس إحدى القبائل الإيرانية التي سكنت مقاطعة أنشان Anshan. وجمع عنصر اللغة بينهم وبين الميديين[1] الذين أصبحت مملكتهم جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الفارسية منذ عام (٥٥٠) ق.م.

وقد بدأ الفرس توجههم نحو تأسيس إمبراطورية كبرى في عهد قورش أو (سايروس) Syrus الذي ينتمي إلي السلالة الأخمينية Hechamenids، والذي أصبح أول ملوك الفرس عام (٥٥٩) ق.م. وضم قورش مملكة ليديا إليه في سنة (٥٤٤) ق.م، وبابل الثانية في سنة (٥٣٩) ق.م. وهكذا تشكّلت وظهرت إلي الوجود الإمبراطورية الفارسية The Persian Empire، التي تُعد حكومتها خليطاً من الميديين والفرس، وتحكم شعوباً من أجناس متعددة.

وبدأ الصراع بين الفرس والإغريق في عام (٤٩٩)ق.م عندما قامت المدن الأيونيةCitiesIonian* بثورة ضد الحكم الفارسي بمساعدة من المدن الإغريقية أثينا Athens وإرتريا Eretria .علي أن الثورة فشلت، ولكنها أوضحت للفرس أن عليهم إثبات وجودهم في بحر إيجة ومعاقبة المدن المتورطة في الثورة إن أرادوا العيش بأمان واستقرار في آسيا الصغرى. ومن أجل ذلك قام الملك الفارسي دارا أو داريوس الأول Darius بقيادة حملة تأديبية في عام (٤٩٠) ق.م ضد المدن المذكورة؛ فنهب إرتريا وحاول حصار أثينا ولكنه هُزم في معركة سهل مارثون

---

[1] نسبة إلى مملكة ميديا Meadia التي استطاعت أن تجمع حولها عدداً من القبائل الإيرانية وتشكل منها مملكة ذات نزعة قتالية ، والتي حلت محل الأشوريين في حكم أعالي بلاد النهرين وسوريا فضلاً عن إيران .

* المدن الأيونية هي مدن إغريقية تأسست علي الجانب الغربي لأسيا الصغرى.

Marthon. وكانت النتيجة المباشرة لهذه المعركة فتح الطريق أمام أثينا لتولي زعامة المدن الإغريقية .

ولم يستطع دارا أن ينسى هذه الهزيمة، فأخذ يخطط ويعد العدة لغزو بلاد الإغريق والانتقام من أثينا على وجه الخصوص.

ولكن لم يتم تنفيذ خطته إلا على يد ابنه وخليفته إكسركسيس Xerxes في عام (٤٨٠) ق.م. على أن الحملة الفارسية الجديدة لم تكن حملة انتقامية الغرض منها تأديب مدن بعينها، ولكنها كانت حملة تهدف إلى غزو بلاد الإغريق عامة واحتلال مدنها، باستثناء تلك المدن التي تُعلن عن خضوعها للفرس وعدم مقاومتهم. وفعلاً اجتاحت الجيوش الفارسية المدن الإغريقية الواحدة بعد الأخرى بما في ذلك أثينا التي تم نهبها وتخريبها. وعلى الرغم من الانتصارات المبدئية التي حققتها الجيوش الفارسية؛ فإن إطالة أمد الحرب كان في صالح الإغريق الذين جمعوا شملهم هذه المرة واتحدوا تحت راية أثينا وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالفرس وتحرير بلاد الإغريق والمدن الأيونية من السيطرة الفارسية، في حين تراجع الفرس إلى بلادهم ولم يتعرضوا للمدن الأيونية ولا لبلاد الإغريق مرة أخرى.

وهكذا أنهت معركة سلاميس Salamis البحرية التي وقعت في سبتمبر من عام (٤٨٠)ق.م المرحلة الأولى من الصراع بين الشرق والغرب. ولم تبدأ المرحلة الثانية إلا في عهد الإسكندر الأكبر المقدوني في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، الذي استطاع أن يوحد بلاد الإغريق بزعامة مقدونيا وشرع في غزو العالم المعروف وقتذاك. فقدم إلي الشرق؛

فاحتل مصر، وسوريا، وفلسطين، ودمر الإمبراطورية الفارسية وأسس إمبراطورية بلغت حدودها مشارف الهند.

أسباب الصراع :

ويمكن حصر الأسباب التي أدت إلي نشوب الصراع بين الفرس والإغريق في الآتي:

١-رغبة الفرس في تأمين السيطرة علي مركز الصراع وقتذاك ألا وهو حوضالبحر المتوسط: فقد أدرك الفرس أهمية هذا البحر كما أدركوا أن أخطر المنافسين لهم في السيطرة على منافذه هي المدن الإغريقية سواء الأيونية علي الساحل الغربي من آسيا الصغرى أم المدن الأخرى الواقعة في بلاد اليونان. ولأن سيطرتهم على حوض البحر المتوسط تعني سيطرتهم على طرق التجارة ومنافذها وربطها بتجارة الخليج الذين كانوا يسيطرون عليه.

٢-ازدهار المدن الأيونية وغناها اقتصادياً وثقافياً مقارنة بالأوضاع التي كانت عليها بلاد الفرس. فقد كانت هذه المدن تدفع إتاوة سنوية للفرس مقابل عدم التدخل في شؤونها. واستمرت العلاقة وديّة بين الجانبين وتطورت حتى أخذ الفرس يتدخلون في الشؤون الداخلية لتلك المدن الأمر الذي أدى بها إلي الثورة ضد الحكم الفارسي واندلاع الصراع بين الفرس والإغريق بشكل عام.

٣-اختلاف الأنظمة السياسية أو أنظمة الحكم لدى الجانبين. فقد كانت المدن الإغريقية تمارس نظام الحكم الديمقراطي فيما يُعرف بدولة المدينة State–City، بينما كان الحكم المطلق هو سمة

نظام الحكم الفارسي. ومن ثم فإن الفرس رغبوا في القضاء على ذلك النظام واستبداله؛ بدليل أنهم أقاموا حاكماً مطلقاً يدعى "طاغية Tyrannus" على رأس كل مدينة وقعت تحت سيطرتهم.

٤- وأما السبب الأخير فيرجع إلى أن فكرة قيام أي إمبراطورية لها صفة العالمية في العصور القديمة ارتبطت دائماً بالسيادة البحرية Thalassocracy على حوض البحر المتوسط الذي كان يمثل قلب العالم في ذلك الوقت.

الخلاصة:

وهكذا، فإذا نظرنا إلى هذا الصراع في هذه الحقبة الزمنية، نجده صراعاً بين حضارتين متمايزتين، ومختلفتين عن بعضهما تمام الاختلاف؛ أي لا يوجد بينهما قاسم مشترك سوى الرغبة في التوسع وبسط النفوذ؛ بمعنى أنه كان صراعاً بين قوتين عُظميين كل منها تريد القضاء على الأخرى بقوة السلاح والسيطرة على العالم المعروف وقتذاك. لذلك فإن الصراع بينهما كان صراعاً توسعياً اقتصادياً لا علاقة له بالدين.

ثانيا : الصراع الإغريقي – القرطاجي :

ترجع جذور هذا الصراع إلى حوالي القرن السادس ق.م بعد أن تجاوز الإغريق مرحلة العصر المظلم (١٢٠٠ – ٧٥٠ ق.م) وانطلقوا في حركة التوسع وتأسيس المستوطنات ومن هنا بدأ الاحتكاك بينهم وبين القرطاجيين . وكان مركز الصراع أول الأمر جزيرة صقلية التي نشأت بها مستوطنات لكلا الجانبين، حيث حاول الإغريق الذين انتشروا في

شمال وشرق وجنوب الجزيرة طرد الفينيقيين من غربها . وأمام عجز صورعن توفير الحماية للمستوطنات الفينيقية هناك تدخلت قرطاجة لتتولى هذا الأمر .

ويمكن حصر أسباب الصراع بين الإغريق والقرطاجيين في المنافسة التجارية ؛ حيث سيطرت قرطاجة على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وحرصت على احتكار التجارة فيه ، ووقفت بقوة ضد أي محاولة تغلغل أجنبي بالمنطقة. ولما كان الإغريق قد استعادوا نشاطهم خلال حركة التوسع والانتشار، فقد سعوا إلى إثبات وجودهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط والوصول إلى سواحل إسبانيا. وفي هذا الإطار حاولوا السيطرة على جزء من الساحل الغربي لليبيا وأسسوا فيه مستعمرة على نهر كينيبس (وادي كعام) عام (٥١٧ ق.م) . ولكن قرطاجة سرعان ما أدركت خطورة تسرب الإغريق إلى المنطقة فقامت بتدمير تلك المستوطنة بالتعاون مع قبيلة المكاي الليبية بعد ثلاث سنوات من تأسيسها؛ وفي الوقت نفسه سعت إلى ترسيم الحدود بينها وبين المستعمرات الإغريقية بإقليم قوريني لمنع تسرب التجار الإغريق إلى إقليم المدن الثلاث، حيث تم الاتفاق على تعيين نقطة فاصلة بين أملاك الطرفين بالقرب من خليج سرت عُرفت بمذابح الأخوين فيلاني أو القوس.

أما في صقلية فقد بلغ التنافس الاقتصادي والسياسي ذروته خلال القرنين الخامس والرابع ق.م، وكانت المستوطنات الإغريقية فيها في حالة صراع مستمر فيما بينها كما هو الحال في بلاد الإغريق الأم.

وعلى الرغم من ذلك الصراع والخلافات فإن بروز بعض الشخصيات الطموحة من حين لآخر كان له أثره الواضح في جمع صفوف الإغريق وتحقيق بعض الانتصارات على قرطاجة كان أهمها انتصارهم في معركة هيميرا عام (٤٨٠ ق.م) . ولكن قرطاجة سرعان ما استعادت قوتها وانتقمت لهزيمتها في هيميرا مستغلة الخلافات بين المستوطنات الإغريقية بالجزيرة ورغبة كل منها في ألا يجاورها من هو أقوى منها.

وحوالي عام ٣٤١ ق.م أرسلت مدينة كورنثة حملة بقيادة تيموليون لمساعدة سيراكوزة في التصدي للقرطاجيين. وقد نجح في ذلك بانتصاره عليهم في معركة كريميسوس عام (٣٣٩ ق.م) وتم إكراههم على عقد اتفاقية سلام معه. ولكن الخطر الأكبر الذي تعرضت له قرطاجة من جانب الإغريق كان على يد أچاتوكليس الذي تولى حكم سيراكوزة عام (٣١٧ ق.م) وسعى إلى نقل الحرب ضد القرطاجيين إلى شمال أفريقيا عام (٣١٠ ق.م) وعزز خطته بالتحالف مع أوفـيلاس نائب بطليموس الأول في حكم إقليم برقة. وتضمن التحالف الاتفاق على أن يتولى أويلاس حكم شمال أفريقيا وأچاتوكليس حكم صقلية بعد الانتصار على قرطاجة. وبناء على ذلك تحرك أوفـيلاس على رأس قواته للانضمام إلى أچاتوكليس ولكن الخلاف سرعان ما دب بين الحليفين وانتهى إلى تدبير أچاتوكليس مؤامرة لاغتيال حليفه وضم قواته إلى معسكره.

إن تعاظم مسؤوليات أچاتوكليس بصقلية اضطرته إلى السفر تاركاً قيادة قواته بالمغرب لابنه الأمر الذي هيأ الفرصة للقرطاجيين

للانقضاض عليها. ولم تجد عودة أجاتوكليس لإنقاذ الموقف، فاضطر إلى مغادرة المغرب. وتوصلت قواته فيما بعد إلى عقد معاهدة سلام مع قرطاجة عام (٣٠٥ ق.م) نصّت على نهاية الحرب وانسحاب القوات الغازية واحتفاظ قرطاجة بكل ممتلكاتها في شمال أفريقيا وصقلية .

ثالثا : الصراع الروماني – القرطاجي :

تفككت إمبراطورية الإسكندر الأكبر عقب وفاته مباشرة وانقسمت إلى ثلاث دول رئيسة هي : مقدونيا ، ودولة البطالمة في مصر، والسلوقيون في سوريا. ولم يلبث أن نشب الصراع بين هذه الدول من أجل التوسع والهيمنة وبسط النفوذ الأمر الذي أدى إلى إضعافها جميعاً. ومما زاد الأمر سوءاً لجوء المتنافسين المتحاربين إلى روما والاستنجاد بها في حروبهم ضد بعضهم مما أتاح الفرصة لها للتدخل في شؤونهم الداخلية وضربهم ببعضهم والقضاء عليهم آخر الأمر.

قدم الفينيقيون إلى شمال أفريقيا حوالي (١٢٠٠) ق.م وأسسوا العديد من المستوطنات. ولكن مدينة قرطاجة التي تقع بالقرب من مدينة تونس الحالية على ساحل الشمال الأفريقي، أسسها فرع من الفينيقيين المهاجرين من مدينة صور حوالي عام (٨١٤) ق.م .

والفينيقيون هم فرع من الشعوب الكنعانية العربية التي هاجرت من جزيرة العرب منذ زمن بعيد واستقرت في أرض فلسطين. وبما أن الكنعانيين كانوا قد قدموا – حسبما ذكره الجغرافي استرابو– من منطقة عُمان الحالية واشتغلوا بصناعة السفن وركوب البحر، لذلك فإن فرعاً منهم هاجر إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط الذي يُعرف

بالساحل السوري واستقر هناك. وأما لقب الفينيقيين فقد أطلقه عليهم الإغريق نسبة إلي الصبغة الأرجوانية التي اشتهروا بإنتاجها والمتاجرة فيها.

وأما أسباب الصراع فيمكن حصرها في الآتي:

١- احتكار قرطاجة لتجارة حوض البحر المتوسط.

٢- سيطرة قرطاجة على حوض البحر المتوسط وجزره مثل سردينيا وكورسيكا وجزر البليار، إضافة إلي إسبانيا.

٣- وفي عام (٢٦٥) ق.م أتمّت روما توحيد إيطاليا وصارت تتطلع بأنظارها إلى العالم الخارجي فرأت أنه لابد من كسر الاحتكارات الاقتصادية و السياسية لقرطاجة.

٤- رغبة روما في السيطرة على جزيرة صقلية الخصبة والقضاء على النفوذ القرطاجي؛ إذ كانت قرطاجة تحتل الجزء الغربي من الجزيرة وتحاول بسط سلطانها على ما تبقى منها.

٥- طمع روما في مشاركة قرطاجة في المكاسب التي كانت تجنيها من وراء تجارتها مع مناطق غربي البحر المتوسط.

٦- قيام روما عام (٢٦٤) ق.م باحتلال مضيق مسينّا أو مسّانا الاستراتيجي. لأنها رأت في وقوع هذا المضيق في يد قرطاجة سوف يجعل الأراضي الإيطالية تواجه خطر التهديد القرطاجي بشكل مستمر.

ويُعد احتلال روما لمضيق مسينا السبب المباشر في انفجار الصراع بين روما وقرطاجة؛ صراع تيلور في ثلاثة حروب عُرفت باسم الحروب البونية واستمرت حوالي قرن من الزمان تخللتها فترات راحة، وتبادل الطرفان النصر والهزيمة إلى أن كانت النهاية عام (١٤٦) ق.م بدمار قرطاجة وزوالها من الوجود.

العلاقات البيزنطية العربية

أ- بيزنطة والإسلام :

كانت الإمبراطورية البيزنطية والإسلام على اتصال وثيق فيما يتعلق بتاريخهما الخارجي والداخلي لعدة قرون. وكان العرب منذ القرن السابع حتى حوالي منتصف القرن الحادي عشر يمثلون الإسلام، ومنذ حوالي منتصف القرن الحادي عشر حتى سقوط القسطنطينية صار يمثله الأتراك: السلاجقة منهم أولاً ثم العثمانيون فيما بعد.

ولم تكد تمضي سنوات قليلة على ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية حوالي سنة (٦٢٢) وعلى وفاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في سنة (٦٣٢)، حتى استولى العرب على حصن بُصرى (بُثرا Bothra) البيزنطي فيما وراء الأردن؛ ويصف إدوارد جيبون استيلاء العرب على ذلك الحصن بأنه ((حادث تافه لو لم يكن مقدمة لثورة عظمى)) .

وربما كان أثر المذهبين النسطوري[1] والمونوفستي[2] على الإسلام في أيامه الأولى أقوى بكثير مما يُظن عادة؛ على حد قول أحد المؤرخين الغربيين: ذلك أن علماء اللاهوت البيزنطيين نظروا إلى الإسلام في بادئ

---

[1] نسبة إلى نسطوريوس الذي قال بأن الله خلق إنساناً بطبيعتين واحدة إلهية وأخر بشرية ولكن الطبيعة البشرية تغلبت على الطبيعة الإلهية، وأن العذراء هي أم للمسيح البشري. وعُرفوا بأصحاب الطبيعتين.

[2] المونوفستية أو المونوفيزية Monophysitism؛ نظرية أو عقيدة نادت بها كنيسة الإسكندرية ومفادها ؛ أن الله خلق إنسانًا بطبيعتين إلاهية وأخرى بشرية فاتحدتا في شخصه وكونتا طبيعة واحدة مقدسة. وعرف أصحاب هذا المذهب بأتباع "الطبيعة الواحدة"، وانتشر في كل من مصر وسوريا وفلسطين، كما أن بيزنطة كانت تدين بالأرثوذكسية ومعارضة للمونوفستية.

الأمر على أنه فرع من الأريوسية[1]، ووضعوه في المستوى نفسه مع المذاهب النصرانية الأخرى. وفي القرن الثامن نظر يوحنا الدمشقي John Damascene، الذي عاش في البلاط الإسلامي – إلى الإسلام على أنه ليس سوى ضرب من ضروب الانشقاق عن العقيدة النصرانية الحقة، وهو من هذه الناحية يشبه الهرطقات الأخرى التي سبقت ظهوره. وأن الأدب البيزنطي الجدلي والدفاعي Apologtic and Polemic literature يتكلم عن الإسلام بالكيفية ذاتها التي يجادل بها ضد العقيدة المونوفستية أو أتباع الإرادة الواحدة وغيرهم من أتباع التعاليم والعقائد الهرطقية الأخرى. كما لم يبد المؤرخون البيزنطيون اهتماماً كبيراً لظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولا للحركة السياسية التي أسسها.

ومن ناحية أخرى فقد علّق . غريغوار H. Gregoire أهمية خاصة على التقارب بين الإسلام والمونوفستية؛ فعندما تصدى لشرح قول المؤرخ پيرين Pirenne "إن محمداً (ﷺ) هو الذي صنع شارلمان – وهو قول كان له وقع كبير وما يزال موضع جدل ونقاش – قرر" أن يوتيخا" أحد مؤسسي المذهب المونوفستي – "صنع محمداً، وأن المسيحية البيزنطية في صورتها المونوفستية صارت إحدى أسس الإسلام الرئيسة."

وهكذا نرى أن هذه الآراء التي يتناقلها كل من ديل، وازلييا، وغريغوار، وپيرين وغيرهم من المؤرخين، لا تزيد عن كونها افتراضات

---

[1] الأريوسية Arianism :طائفة منشقة عن تعاليم الكنيسة . أخذت اسمها من مؤسسها أريوس الذي وُصفت آراؤه بالتوحيدية لأنه قال أن الابن (المسيح) مخلوق وليس مولودا، إذن هو أقل منزلة من الأب (الخالق) الذي يتميّز بالكمال، والوحدانية، والأزلية. وأما صفة القدسية فقد أضفيت على المسيح فيما بعد.

لا تقوم على أساس صحيح من المعرفة بالإسلام والتوحيد وأصولهما؛ بل ثمة من رد خير ما في العقيدة الإسلامية إلى مذاهب تمثل فرقاً نصرانية خارجة عن الكنيسة.

ومن المعروف أن العقيدة الإسلامية لم يطرأ عليها أي تغيير بعد وفاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فلا معنى للقول بتأثيرات نصرانية جدّت عليها تحت تأثير اتصالها بالنصارى وديانتهم فيما بعد، بل العكس هو الصحيح؛ فقد تأثرت عقيدة الدولة البيزنطية – وبخاصة أثناء الحرب على الأيقونات – خلال القرنين الثامن والتاسع بالإسلام تأثراً كبيراً في مسائل عدة يأتي في مقدمتها تحريم وضع الصور والتماثيل في الكنائس ومنع تقديسها.

وأما عبارة المؤرخ هنري پيرين المشار إليها سابقاً فهي عبارة فريدة يمكن الإطلاع عليها مفصلة تفصيلاً طويلاً في كتابه المعنون "محمد وشارلمان Mohamed and Charlemange" الذي قدّم فيه عدداً من الافتراضات المبنية على أساس سيادة المسلمين على حوض البحر المتوسط وأثرها على التوجيه التاريخي للدولة البيزنطية، وعلى الأوضاع الاقتصادية لدول غرب أوروبا بين القرنيين الثامن والحادي عشر. وقد أثارت آراؤه هذه موجة من المعارضة لدى مؤرخي العصور الوسطي الأوروبية، وتصدى لها كثير منهم ولكنّ أحداً لم يستطع أن يدحضها تماماً.

وحتى في أوروبا الغربية فقد نُظر إلى الإسلام على أنه لا يمثّل ديناً متميزًا بذاته، ولكنه مجرد طائفة أو فرقة دينية نصرانية تشبه في

عقيدتها الطائفة الأريوسية. وأما في فترة العصور الوسطى المتأخرة فقد نظر دانتي إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه الكوميديا الإلهية The Divine Comedy على أنه هرطقي، ووصفه بزارع الفضيحة والشقاق

Sower of scandal and schism (seminator di sacandalo e di scisma)

وبحلول القرن الرابع كانت النصرانية قد انتشرت في ربوع الإمبراطورية الرومانية، وكثر أتباعها، واعترف بها رسمياً الإمبراطور قسطنطين الكبير (الأول) في مرسومه الشهير بمرسوم ميلانو سنة (٣١٣)؛ فصار وجودها قانونياً، وشيد لها قسطنطين الكنائس، وأغدق عليها وعلى رجالها الكثير من الامتيازات وهو ما ساعد على نموها وزيادة أتباعها، وترسيخ وجودها، وتقوية مركزها. حتى إذا جاء عام (٣٩٢) جعل منها الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية. وانقسمت هذه الإمبراطورية في عام (٣٩٥) إلى قسمين شرقي وغربي. واعترى القسم الغربي الضعف، بينما استمر القسم الشرقي قوياً وهو ما يُعرف بالإمبراطورية البيزنطية.

ب ـ العلاقات البيزنطية العربية المبكرة:

إن استرجاع مقاطعات سوريا وفلسطين ومصر بأغلبيتها المونوفستية إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية بعد انتزاعها من أيدي الفرس، أظهر للعيان أمراً شديد الحساسية وبالغ الأهمية وهو موقف السلطة المركزية المتذبذب من المونوفستيين. فمن المعروف أن حرب

الإمبراطور هيرقل مع الفرس – على الرغم من نتائجها الإيجابية – لابد وأن تكون قد أضعفت القدرة القتالية للإمبراطورية البيزنطية بسبب ما لحق بجيوشها من خسائر كبيرة في الأرواح وما تكبدته خزينتها من نفقات مالية ضخمة.

لقد كان الصراع بين الشرق والغرب كامناً عبر تاريخ الإمبراطورية الرومانية : فإذا كان الغرب قد انتصر في معركة أكتيوم سنة (٣١ ق.م) ، فإن الشرق تغلب على غزاته؛ ذلك أن مصر وسوريا كانتا أغنى أقاليم الإمبراطورية، وأكثرها سكانًا، وبهما أهم مراكز الصناعة، وتسيطر سفنهما وقوافلهما على تجارة الشرق، وحسب وإنما أيضا إلى قربهما من إمبراطورية الساسانيين الفارسية التي كانت تمثل حافزًا لهما والتي كانت الند الحضاري والعسكري الوحيد لروما . لذلك لم يكن ثمة مناص من أن يتعاظم نفوذ الشرق. وبينما بدأت الممالك الجرمانية تنشأ في بلاد الغال (فرنسا)، وإسبانيا، وإفريقيا، وبريطانيا النائية وأخيرًا في إيطاليا، كان الإمبراطور البيزنطي يحكم المقاطعات الشرقية – سوريا ومصر – من القسطنطينية ، ونادرًا ما كانت حكومة القسطنطينية تحظى بشعبية في مصر وسوريا. ومن ثم فإن العلاقة بينهما بدأت تتعكر ويزداد التوتر بينهما عمقا حتى بلغ درجة الكراهية للحكومة المركزية، وذلك للأسباب التالية :

١- فالفقر الذي حل بالغرب كان يعني ضياع أسواق للتاجر السوري والصانع المصري .

٢- إن الحروب شبه المستمرة مع فارس عرقلت طريق التجارة الذي كان يمر خلال الصحراء إلى أنطاكية والمدن اللبنانية.

٣- إن سقوط إمبراطورية الحبشة الذي أدى إلى تفشي الاضطراب في شبه الجزيرة العربية، والذي أسفر عن إغلاق طريق تجارة البحر الأحمر الذي كان يسيطر عليه بحّارو مصر وأصحاب القوافل في البتراء وجنوب فلسطين، كل ذلك جعل من أن تصبح القسطنطينية السوق الرئيس للإمبراطورية التي صارت تجارة الشرق الأقصى تتجه إليه، الأمر الذي ولّد الغيرة لدى أبناء الإسكندرية وأنطاكية.

٤- ومن الأشياء التي زادت في تعميق الخلافات هي زيادة مركزية الحكومة في القسطنطينية وتقلص الحقوق المحلية وحقوق الأقليات على نحو مطّرد.

٥- هذا فضلاً عن أن قسوة جابيي الضرائب وإلحاحهم الذي فاق ما كان عليه الحال أيام روما القديمة، أدت إلى تفشي السخط وإضافة قوة جديدة إلى جذوة الروح القومية الشرقية التي لم تخمد.

٦- أما السبب الأخير الذي عجّل بإنهاء العلاقة مع القسطنطينية وتيسير وقوع تلك المناطق بأيدي العرب المسلمين فهو المتعلق بالمعتقد الديني؛ ذلك أن المقاطعات الشرقية كانت في معظمها تتبع العقيدة المونوفستية التي تقول بأن الله خلق إنساناً بطبيعتين إلهية وأخرى بشرية، ولكن الطبيعة الإلهية ابتلعت الطبيعة البشرية وتكونت لدى المسيح طبيعة واحدة مقدسة، وعُرف هؤلاء بأصحاب الطبيعة الواحدة. بينما كانت

القسطنطينية تتبع المذهب الأرثوذكسي وتعارض تلك الطائفة وتنظر إلى أتباعها على أنهم هراطقة وخارجون عن القانون.

ولقد استرعت السرعة التي تمت بها الفتوحات العربية الإسلامية انتباه المؤرخين والزمن القياسي الذي أسس فيه العرب المسلمون دولة شاسعة مترامية الأطراف: ففي سنة (٦٣٤) أكتمل فتح جزيرة العرب، وفي السنة نفسها بدأ فتح بلاد الشام، فأذعنت دمشق وحمص في سنة (٦٣٥)، وتعرض الجيش البيزنطي الضخم الذي حاول استعادتهما إلى هزيمة كبرى في معركة اليرموك الشهيرة سنة (٦٣٦). ولم تلبث المقاومة البيزنطية أن تضاءلت بعد ذلك، ففي سنة (٦٣٧) تمكن المسلمون من فتح عكا وصور وصيدا وبيروت واللاذقية، وأذعنت لهم بيت المقدس وأنطاكية سنة (٦٣٨)، وقيسارية سنة (٦٤٠). وأما في الغرب فقد انتزع العرب من البيزنطيين في الفترة ما بين (٦٤١ و ٦٩٥) مصر، والشمال الأفريقي بأكمله.

ولم تحل سنة (٦٥٠) حتى كانت سوريا والقسم الشرقي من آسيا الصغرى، والعراق وفلسطين، ومصر وجزء من الولايات البيزنطية في شمال إفريقيا قد دخلت تحت الحكم العربي. وعند نهاية القرن السابع فتح العرب شمالي إفريقيا كله، وبدأوا عند مطلع القرن الثامن فتحهم المظفر لشبه الجزيرة الإيبيرية.

وهكذا أصبح العرب يهيمنون على سواحل طويلة تتطلب الحماية من عدوان سفن الأسطول البيزنطي. ولم يكن للعرب أسطول، كما لم يكن لهم خبرة بالشؤون البحرية. ولكن أهل الشام من السوريين والإغريق – الذين كان العرب قد فتحوا بلادهم آنذاك– كانوا

متمرسين في الشؤون البحرية وكان دورهم في غاية الأهمية في بناء ذلك الأسطول وقيادته. ومنذ حوالي منتصف القرن السابع كانت السفن العربية قد احتلت جزيرة قبرص التي تعد محطة بحرية مهمة، ثم لم يلبثوا أن أنزلوا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري سنة (٦٥٥)، ووصلوا إلى جزر كريت وصقلية وعبروا بحر إيجة والدردنيل. وبعد أن حاصر العرب العاصمة البيزنطية القسطنطينية حصارهم الأول في سنة (٦٧٠) بقيادة سفيان بن عوف وأبي أيوب الأنصاري ارتدوا عنها من دون توفيق وعسكروا في ميناء كيزيكوس Cyzicos واتخذوه مركزًا لأعمالهم الحربية ضد القسطنطينية على مدى السنوات السبع التالية. وبعد أن فشل العرب في الاستيلاء على القسطنطينية سنة (٦٧٠) في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ – ٦٨٥) بسبب استعمال البيزنطيين للنار الإغريقية التي اخترعها آنذاك رجل سوري يدعى كالينيكوس، ظلوا يترددون على القسطنطينية كل عام حتى سنة (٦٧٧). كما فشلت كل المحاولات البرية التي قام بها العرب وقتذاك، الأمر الذي أدى بهم إلى العودة بعد عقدهم معاهدة مع الدولة البيزنطية تعهدت فيها الأخيرة بدفع إتاوة سنوية.

ولم يتوقف العرب عن مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً حتى كان أوائل القرن الثامن حينما رأى حكام الدولة الأموية أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى للاستيلاء على القسطنطينية.

ومع كل ذلك لم يتغير مفهوم الصراع لدى الجانب البيزنطي ويصطبغ بالصبغة الدينية : إذ لم يخرج داعية في الإمبراطورية يحرض البيزنطيين ويدعوهم إلى شن حرب على العرب باسم الدين، كما لم

تتدخل الكنيسة في ذلك الصراع؛ ذلك أنها رأت أن مسألة استرداد الأماكن المقدسة شأن سياسي تتولى أمره السلطات السياسية.

ومن ثم يمكن القول أن ما وقع من صدام بين العرب المسلمين وبيزنطة كان بالنسبة للعرب جهاداً مشروعًا ونشرًا للدين وعودة أقاليم يشترك أغلبها معهم في الأصل واللغة، وأما بالنسبة للبيزنطيين فكانت محاولة منهم لإبقاء تلك الأقاليم خاضعة لنفوذهم وتحت سيطرتهم.

على أن أول إشارة إلي تغير ذلك المفهوم، واعتبار أن الحرب ضد غير النصارى تُعد حرباً صليبية مقدسة، جاءت- كما يرى بعض المؤرخين – في حرب الاسترداد التي شنّها الإمبراطور هيرقل على الفرس في الفترة الواقعة بين عامي (٦٢٢ - ٦٢٨) حينما وافقت الكنيسة على المشاركة في تلك الحرب عن طريق تسخير إمكاناتها المادية والمعنوية لخدمة جهود الإمبراطور الحربية.

الفتوحات العربية الإسلامية وأثرها:

منذ أول ظهور لهم على مسرح أحداث التاريخ العالمي في العقد الرابع من القرن السابع، استطاع العرب – وبسرعة استثنائية – الاستيلاء على مقاطعات الإمبراطورية الشرقية سوريا، وفلسطين، وبلاد ما بين النهرين، والأقسام الشرقية من آسيا الصغرى، ومصر، والشاطئ الشمالي لأفريقيا، وإسبانيا – أي الجزء الأكبر من ممتلكات القوط الغربيين. وقام العرب في النصف الثاني من القرن السابع وبداية القرن الثامن بفرض الحصار على العاصمة البيزنطية القسطنطينية مرتين ولكنها امتنعت عليهم بفضل ما أبداه الأباطرة قسطنطين الرابع وليو الثالث الأيسوري من نشاط وحيوية فضلاً عن عوامل أخرى مساعدة

كمساندة البلغار، وقسوة الظروف المناخية. واستخدام النار الإغريقية وفي سنة (٧٣٢) استطاع الحاجب شارل مارتل، أيضاً بمساندة من بعض المدن الفرنسية وقبائل اللومبارد، أن يوقف تقدم الجيوش العربية الإسلامية نحو وسط أوروبا في موقعة پواتيه Poitiers. واستولى العرب على جزيرة كريت في القرن التاسع، وبدأوا منذ بدايات القرن العاشر في فتح جزيرة صقلية، كما انتقل القسم الأكبر من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في الجنوب الإيطالي إلى أيديهم.

لقد كانت الفتوحات العربية على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للأوضاع السياسية والاقتصادية في أوروبا. إن هذا الهجوم الكاسح للعرب، كما يصفه المؤرخ هنري پيرين H . Pirenne "غيّر وجه العالم. ففي هيئة اندفاع فجائي دمّر أوروبا القديمة. لقد وضع حداً للكومنويلث المتوسطي الذي يُعد مصدر قوته . . . . لقد كان البحر المتوسط بحيرة رومانية Roman Lake؛ وصار الآن – في معظمه – بحيرة إسلامية a Moslem Lake."

ومع ذلك، يجب أن يؤخذ هذا الرأي بشيء من التحفظ، لأن العلاقات التجارية بين أوروبا الغربية وبلدان الشرق طرأ عليها نوع من الانحسار ولكنها لم تتوقف؛ فقد استمر سفر التجار والحجاج ذهاباً وجيئة، كما استمر تدفق المنتوجات الشرقية الجذابة ووجودها في أوروبا وبخاصة في بلاد الغال (فرنسا).

لقد ميّز الإسلام البدائي (الأوّلي) نفسه بالتسامح. وقد وقعت حالات منفصلة من الاعتداءات على النصارى وكنائسهم في القرن العاشر، ولكن لم يكن وراءها دوافع دينية، ومن ثم فقد كانت تلك

الحوادث المؤسفة متقطعة. وقد حافظ العرب في أغلب الأحيان في الأقاليم التي فتحوها على الكنائس وسمحوا للنصارى بممارسة شعائرهم الدينية، ولم يمنعوا الكنائس من ممارسة الأعمال الخيرية.

وقد تطورت العلاقات بين الغرب الأوروبي والشرق العربي في عهد كل من شارلمان إمبراطور الفرنجة وهارون الرشيد؛ فقد كان ثمة فنادق ومشافي في فلسطين يأوي إليها الحجاج، وتم تشييد كنائس جديدة وإعادة بناء أخرى أو ترميمها؛ ومن أجل هذا الغرض بعث شارلمان الصدقات بشكل وفير إلى فلسطين. كما تم تنظيم المكتبات الموجودة في الأديرة، ومن ثم صار الحجاج يزورون الأماكن المقدسة من دون أن يتعرضوا لأي مضايقات. إن تلك العلاقات بين إمبراطورية شارلمان الفرنجية وبين فلسطين والتي تمت في إطار تبادل السفارات بين العاهل الغربي والخليفة هارون الرشيد أفضت إلى استنتاج يدعمه فريق من المؤرخين مفاده قيام نوع من "المحمية الفرنجية Frankish Protectorate " في فلسطين تحت إشراف شارلمان وذلك فيما يتعلق بمصالح النصارى في الأرض المقدسة، وأما فيما يخص سيادة الخليفة على تلك البلاد فقد ظلت كاملة وغير منقوصة. ومن ناحية أخرى، ثمة عدد من المؤرخين يرفض الاعتراف بأن تكون لتلك العلاقات أهمية، ويقولون أن "المحمية" لم يكن لها وجود مطلقاً، وما هي "سوى خرافة تشبه في ذلك الأسطورة التي تقول بقيام شارلمان بحملة صليبية إلى الأرض المقدسة."

تعقيب :-

ولماذا ينكر هؤلاء المؤرخون وجود محمية فرنجية في فلسطين ويقللون من أهميتها ويصفونها بأنها "اسطورة" وأغلبهم يؤكدون على سماحة الدين الإسلامي وتسامح الحكام العرب المسلمين مع أتباع الديانات الأخرى وعدم تعرض رعاياهم لأي نوع من الاضطهاد الديني في ظل الحكم الإسلامي. ولماذا لا تكون هذه المحمية الفرنجية موجودة في فلسطين؛ إذ أن وجودها لا يُنقص من وجود السلطة الإسلامية ولا يتعارض مع الحكم الإسلامي لفلسطين، ويتماشى مع ما سنّه الخليفة الفاروق عندما فُتحت القدس واستسلمت ودخلها فاتحاً وذلك فيما عُرف في التاريخ الإسلامي "بالعهدة العُمرية"، والتي تعني ترك الإشراف على الأماكن المقدسة لأتباع الديانات الأخرى لأهلها. والمحمية الفرنجية هنا تعني إشراف شارلمان بوصفه آنذاك الإمبراطور الأوحد والأقوى في الغرب الأوروبي والمهمين على الشؤون السياسية والدينية فيه. وأما لفظة "الفرنجية" فقد جاءت نسبة إلى الإمبراطورية الكارولنجية الفرنجية التي خلفت المملكة الميروفنجية والتي أسسها شارلمان وضمت أوروبا بأكملها ما عدا بعض المناطق في أقصى الجنوب الإيطالي والجزر البريطانية.

إن مصطلح "المحمية الفرنجية Frankish Protectorate" – مثله في ذلك مثل كثير من المصطلحات – هو مصطلح تقليدي وإلى حد ما غامض؛ ومن ثم فإن مناقشته تعد مهمة من أجل توضيح أن الإمبراطورية الفرنجية Frankish Empire ومنذ بدايات القرن التاسع

كان لها مصالح على درجة كبيرة من الأهمية في فلسطين، وهى حقيقة لها أهمية كبرى في تطوير العلاقات الدولية في الفترة التي سبقت قيام الحروب الصليبية.

ذلك أن الانتصارات الباهرة التي حققها للإمبراطورية البيزنطية في النصف الثاني من القرن العاشر كل من نقفور فوكاس Nicephorus Phocas وجون تزيمسكس John Tzimisces على عرب المشرق، والتي جعلت من المدن السورية – حلب وأنطاكية – أقاليم تابعة للإمبراطورية، أدت كذلك إلى احتمال أن يكون الجيش البيزنطي قد دخل أرض فلسطين بعد ذلك. ويبدو أنه قد كان لهذه الانتصارات العسكرية البيزنطية صدىً قوياً في مدينة القدس، الأمر الذي جعل المؤرخ الفرنسي برايير Brehier يعتقد بوجود محمية بيزنطية Byzantine Protectorate على الأراضي المقدسة والذي يعني وضع حد لوجود المحمية الفرنجية هناك.

ولكن حينما انتقلت فلسطين في النصف الثاني من القرن العاشر (في ٩٦٩) للفاطميين الذين يحكمون مصر، فإن الوضع الجديد على ما يبدو لم يحمل معه أي تغيير جذري– على الأقل في البداية – على حياة النصارى الشرقيين، كما استمر توافد الحجاج على فلسطين في أمن وسلام. ولكن الظروف تغيرت في بداية القرن الحادي عشر، حينما قام الحاكم بأمر الله الفاطمي – الذي يبدو أنه أصيب بلوثة عقلية – باضطهاد النصارى واليهود ومن بعدهم المسلمين. ولكن هذه الطفرة لم تلبث أن انتهت بموته في سنة (١٠٢١)؛ حيث عادة حياة التسامح والوئام

بين المسلمين والنصارى، وعاد الهدوء إلى الأماكن المقدسة وشُرع في عملية ترميم وإعادة بناء ما تم هدمه، عملية لم تنته إلا في منتصف القرن الحادي عشر. كما عادت العلاقات السلمية بين الفاطميين والبيزنطيين الأمر الذي يسّر عملية إعادة بناء كنيسة القيامة وغيرها. وصار من اليسير أيضاً على الحجيج المجيء إلى الأرض المقدسة.

على أنه حدث في العقد الرابع من القرن الحادي عشر أن جاء من الشمال أحد الأمراء يرافقه جماعة من الإسكندينافيين إلى مدينة القدس وقام بمحاربة المسلمين في سوريا وآسيا الصغرى، الأمر الذي تسبب في إعادة إحياء الكراهية ضد النصارى من جديد؛ ذلك أنه تم في سنة (١٠٥٦) إغلاق الضريح المقدس، وطرد ما يزيد عن (٣٠٠) ثلاثمائة نصراني من القدس.

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن الكنيسة ورجالاتها – وبسبب تعصبهم الديني وحقدهم على الإسلام والمسلمين – لم ينسوا أن العرب المسلمين قد اقتطعوا أجزاء من الإمبراطورية البيزنطية المتمثلة في سوريا وفلسطين ومصر والشمال الأفريقي، وأن تلك المناطق كانت تدين بالنصرانية. هذا فضلاً عن بعض المدن في الجنوب الإيطالي وبعض جزر البحر المتوسط وجزيرة صقلية وإسبانيا والتي كانت مهداً للديانة النصرانية أيضاً.

وبقدوم القرن الحادي عشر كانت الخلافة العباسية قد ضعفت وصار الخليفة مجرد رمزٍ للمسلمين وتحت حماية السلاجقة الذين لم تلبث إمبراطوريتهم أن تداعت بموت السلطان ملك شاه في

عام(١٠٩٢)وانقسمت إلى عدة سلطنات متناحرة. واستغلت الكنيسة اللاتينية ممثلة في رئيسها البابا هذا الضعف وكذلك تفكك الدولة الأموية في الأندلس وانهيارها وقيام ممالك متعددة في محلها اضعفها خلافها وتفرق كلمتها، وانحسار نفوذ الدولة العربية الإسلامية في البحر المتوسط بصفة عامة، وطلب المساعدة الذي تقدم به الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنين في بداية عام(١٠٩٥) للحصول على بعض الفرق الأجيرة لوقف تقدم السلاجقة في آسيا الصغرى ودفع خطرهم الذي بات يتهدد القسطنطينية، بالإعلان عما صار يُعرف بالحروب الصليبية كردة فعل – كما تقول الكنيسة – على الفتوحات العربية الإسلامية. ناقش هذه العبارة ومدى توافقها مع الواقع.

العلاقات البيزنطية العربية حتى الأسرة المقدونية

ولم تتغير سياسة الأمويين تجاه القسطنطينية بالرغم من انتقال الحكم من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني؛ فقد تابع الوليد بن عبد الملك الفتوحات التي بدأها أبوه في آسيا الصغرى، جاعلاً من الاستيلاء على المعاقل المهمة الواقعة في الطريق الرئيس المؤدّي إلى القسطنطينية هدفالتحركاته العسكرية. واستهل الوليد هذه التحركات بحصار مدينة طوانة (Tyana)، التي تُعد مفتاح الطريق بين الشام والبسفور والذي تسلكه الجيوش العربية في طريقها لمهاجمة القسطنطينية. وقد وقعت هذه المدينة في أيديهم سنة(٧٠٧) بعد حصار دام لسنتين متتابعتين، وصار العرب المسلمون بذلك يتحكمون في أهم المعاقل بإقليم كبادوكيا(قبادوقيا) بآسيا الصغرى.

وتابع العرب غاراتهم على مدن آسيا الصغرى بنجاح خلال سنوات (٧١٠، و٧١١)؛ وفي سنة(٧١٢) ووصلت جيوشهم إلى مضيق البسفور واستولت على بعض المعاقل المهمة الواقعة بالقرب منه. ويمكن القول أن العمليات الحربية لم تكن سوى عمليات استطلاعية تمهيداً للحملة الكبرى والزحف المباشر على العاصمة البيزنطية. هذا، وقد لعب الأسطول العربي الإسلامي دوراً بارزاً في تلك التحركات.

وهكذا، انتقل الوليد بن عبد الملك إلى الخطوة التالية ألا وهي الإعداد لحملة كبرى هدفها المباشر حصار القسطنطينية ومحاولة الاستيلاء عليها. وقد عهد إلى أخيه مسلمة بقيادتها. ويبدو أن الاستعدادات كانت واسعة النطاق الأمر الذي أدى إلى انتشار أخبار الحملة ووصولها إلى العاصمة البيزنطية سنة(٧١٤) مما دفع الإمبراطور أنسطاسيوس الثاني إلى إرسال وفد إلى دمشق لإجراء مباحثات حول إمكانية عقد هدنة بين الدولتين. وعندما رجع الوفد إلى القسطنطينية أكدّ للإمبراطور صدق عزيمة العرب على غزو العاصمة البيزنطية وأشاروا عليه بضرورة اتخاذ خطوات عملية للدفاع عنها.

ومن أجل عرقلة سير الاستعدادات لهذه الحملة قام أنسطاسيوس الثاني بمهاجمة الأسطول المصري وإلحاق الضرر بالأخشاب قبل وصولها إلى مصر، وعهد إلى جند إقليم أوبسكيون(إقليم الحرس الإمبراطوري) بتنفيذ هذه المهمة. ولكن خططه باءت بالفشل كافة.

وفي سنة(٧١٧) تحركت الجيوش العربية نحو القسطنطينية تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك. وفي ٢٥ مارس(٧١٧) تم عزل

أنسطاسيوس واعتلاء ليو الأيسوري العرش الإمبراطوري الذي لم يلبث أن وضع الخطط الضرورية لمواجهة الحصار المنتظر وتنظيم الدفاع عن العاصمة الإمبراطورية وتقوية تحصيناتها. وفي الفترة الواقعة بين شهري مارس وأغسطس أتم العرب استعداداتهم واستولى مسلمة على مدينة برجام، ثم عبر الدردنيل عند أبيدوس وعسكر أمام أسوار القسطنطينية في ١٥أغسطس من السنة المذكورة. وبدأ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية والبحرية لإتمام حلقة الحصار على المدينة من الناحية البرية، في حين لجأ سليمان أمير البحر العربي إلى سد المنافذ والمسالك المائية التي يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمدادات والمؤن، وكذلك حصار أسوار المدينة البحرية.

وعلى الرغم من إطباق الجيوش العربية على القسطنطينية من الجهتين البرية والبحرية وتضييق الخناق عليها، فإنها صمدت في وجه ذلك الحصار الشديد مما أدى إلى فشله آخر الأمر. وفي أغسطس سنة(٧١٨) اضطرت الجيوش الإسلامية إلى رفع الحصار والعودة إلى ديارها بناءً على أمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز. وكانت تلك آخر محاولة يقوم بها العرب للاستيلاء على القسطنطينية. ويمكن حصر الأسباب التي أدت إلى فشل الحصار في:

١-المقاومة المنظمة والعنيفة التي أبداها الإمبراطور ليو الثالث.

٢-عدم امتلاك العرب لآليات يمكنها دك أسوار المدينة المنيعة.

٣-استخدام ما يُعرف بالنار اليونانية التي كان لها أثر كبير في إلحاق الضرر بالأسطول الإسلامي وتشتيت سفنه.

٤-برودة الشتاء واضطراب خطوط التموين.

٥-المساعدة الثمينة التي تلقاها الإمبراطور من أصدقائه البلغار والتي كان لها الفضل الأكبر في تغيير مجرى الأحداث على الأرض، وهزيمة الجيش الإسلامي.

بلغت الدولة الأموية في أواخر أيامها من الضعف ما شجع الحكام البيزنطيين على أخذ زمام المبادرة ومحاولة استرداد بعض ما تم الاستيلاء عليه من قبل الأمويين؛ فحقق البيزنطيون نصراً بحرياً تمكنوا على إثره من استرداد جزيرة قبرص في سنة(٧٤٦).ومع ذلك، لم تتوقف العمليات الحربية بين الجانبين البيزنطي والعربي بشكل كامل إلا في الفترة التي سبقت سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية حوالي منتصف القرن الثامن(٧٥٠). ونظراً لما رافق ذلك من فوضى واضطرابات، ونقل حاضرة العالم الإسلامي من دمشق القريبة من الحدود البيزنطية إلى بغداد على نهر دجلة، استطاع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس أن يوسع حدود دولته على طول الجبهة الشرقية في آسيا الصغرى عن طريق قيامه بعدد من الحملات العسكرية الناجحة.

ولكن العرب لم يلبثوا أن ردوا على ذلك بغزو مضاد أيام المهدي الذي تزامن وجوده مع الإمبراطورة آيرين Irene (٧٨٠- ٨٠٢) على العرش البيزنطي، حيث توغلت الجيوش العربية في آسيا الصغرى الأمر الذي دفع الإمبراطورة إلى الموافقة على توقيع هدنة في سنة(٧٨٣) مدتها ثلاث سنوات، وتعهدت بموجبها بدفع جزية سنوية . وفي عهد هارون

الرشيد ، وبعد عدة حملات عسكرية ناجحة في سنة (٧٩٨) أكرهت أيرين على الاستمرار في دفع الجزية السنوية .

ولكن الجزية التي كانت تدفعها الامبراطورية البيزنطية توقفت في سنة (٨٠٢) بسبب الانقلاب الذي أطاح بأيرين وجاء بنقفور الأول إلى العرش البيزنطي؛ إذ رفض هذا الاستمرار في دفع الجزية ، ليس هذا فحسب بل بعث للرشيد بكتاب فيه كثير من السخرية و التوبيخ، ويطلب منه فيه رد الأموال التي استلمها من الامبراطورية البيزنطية منتهزًا فرصة وجود " امرأة ضعيفة على العرش " وافتداء نفسه، وإلا – يقول له في آخر الكتاب – " فالسيف بيننا وبينك ".

غضب الرشيد كثيرًا ، ورد على نقفور بكتاب مقتضب جدًا فيه كثير من الشجاعة و الثقة بالنفس قائلاً له " بعد البسملة ، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، إن الرد ما لعينك أن ترى لا ما لأذنك أن تسمع ". وفعلاً قام الرشيد بشن عدد من الحملات العسكرية انتهت سنة (٨٠٦) بتوقيع معاهدة فُرضت فيها الجزية على الإمبراطور نفسه وعلى أفراد أسرته، فضلاً عن الاستمرار في دفع الإتاوة السابقة.

ومن المواقف المثيرة للاهتمام في العلاقات البيزنطية – العباسية أثناء النصف الأول من القرن التاسع مشاركتهم في الثورة التي قادها توماس ضد حكم الإمبراطور ميخائيل الثاني؛ إذ لم يتردد المأمون في الدخول في تحالف مع هذا الثائر ومساعدته في عزل الإمبراطور مقابل حصوله على بعض المناطق الحدودية. ولتأكيد ذلك شارك المأمون في

تتويج توماس إمبراطوراً في مدينة أنطاكية. ولكن وعلى الرغم من كل ذلك استطاع ميخائيل الثاني أن يُلحق الهزيمة بتوماس آخر الأمر. ويرجع الفضل في ذلك إلى مناعة أسوار القسطنطينية وقوة تحصيناتها، والمساعدة الثمينة التي تلقاها الإمبراطور من البلغار.

وهكذا، فإن هزيمة توماس وفشل ثورته يُعد هزيمة وفشلاً لخطط المأمون وسياسته تجاه البيزنطيين؛ لذلك قام ثيوفيلوس الذي خلف ميخائيل الثاني على العرش البيزنطي بمهاجمة الدولة العباسية واستفز المأمون بإيواء بعض الهاربين الأمر الذي أثار حربًا متقطعة بين الجانبين دامت حتى سنة (٨٣٣) كانت الغلبة فيها للعباسيين؛ إذ استطاع المأمون أن يُنزل الهزيمة بالبيزنطيين ويستولي على ممرات طوروس الإستراتيجية سنة (٨٣١). وحينما لم يحالفه الحظ في السنتين التاليتين، اضطر ثيوفيلوس إلى إرسال وفد إلى بغداد سنة (٨٣٣) يطلب الصلح؛ إلا أن تلك السنة شهدت وفاة المأمون.

وتوقفت الحرب بين الجانبين حتى سنة (٨٣٧) حينما قام ثيوفيلوس بالتوسع على حساب الأراضي العباسية في آسيا فاحتل قلعة زبطرة Zapetra وأشعل النيران فيها فضلاً عن اعتدائه على عدد من الأماكن الأخرى والتنكيل بسكانها. وقد أثارت هذه الأحداث المعتصم- الذي خلف أخاه المأمون- فقاد جيوشه في السنة التالية عبر آسيا الصغرى حتى بلغ عمورية Amorion في مقاطعة فريجيا مسقط رأس الإمبراطور فدخلها وأحدث فيها كثيرًا من الدمار كردة فعل على ما حدث في زبطرة. وكان من المتوقع أن يواصل المعتصم زحفه على

العاصمة الإمبراطورية، ولكنه اضطر إلى العودة إلى العراق نظرًا لارتباك الأوضاع هناك وما أشيع من تدبير مؤامرة ضده. ولذلك عادت الإمبراطورية واستردت أراضيها في آسيا الصغرى حتى جبال طوروس. ولم تلبث أن ساعدت مشاغل كل من المعتصم والإمبراطور ثيوفيل على عقد هدنة بين الطرفين استمرت حتى وفاة الاثنين سنة (٨٤٢).

أعلاقة الدولة البيزنطية بعرب المغرب[1] :

وفي الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية البيزنطية تتبادل العمليات الحربية مع قوات الدولة العباسية في المشرق، كان عليها أن تتعامل عسكريا مع عرب شمال أفريقيا الذي تأسست فيه دولة الأغالبة – المستقلة عن الدولة العباسية – في بدايات القرن التاسع، والذين أقاموا لهم دولة في تونس وامتلكوا أسطولاً بحريًا قويًا هددوا به الممتلكات البيزنطية في حوض البحر المتوسط. ذلك أنهم قاموا في وقت مبكر من القرن التاسع – في عهد نقفور الأول – بمد يد العون والمساعدة للسلاف البيلوبونيز في انتفاضتهم وفي حصارهم لمدينة باتراى Patrae أو باتراس Patras .وفي العشرينيات من القرن التاسع فقدت الدولة البيزنطية جزيرة كريت Crete لمسلمي الأندلس وبقيت في أيديهم لمدة تربو عن قرن وربع دون أن يستطيع الأباطرة البيزنطيون استردادها . ومنذ ذلك الحين أضحت كريت معقلاً للعمليات البحرية المتكررة على جزر بحر إيجة، وعلى المقاطعات الواقعة على شاطئ البحر المتوسط الأمر

---

[1] المقصود بعرب المغرب ، عرب شمال أفريقيا والأندلس .

الـذي تسـبب في حـدوث اضـطرابات كـبرى في الحيـاة السياسـية والاقتصادية للإمبراطورية البيزنطية.

وأما خسارة جزيرة صقلية فقد مثّلت ضربة أكثر قساوة وجدّية للإمبراطورية البيزنطية. ذلك أنها تعرضت لهجمات الأساطيل العربية الإسلامية منذ منتصف القرن السابع؛ إذ تذكر المصادر البابوية أن أول حملة " نهب وسلب " تعرضت لها الجزيرة كانت في سنة (٦٥٠). وأما الحملة الثانية فوقعت فيما بين سنتي (٦٧٠) و(٦٧٣) واقتصرت أيضًا على السلب و النهب ولم تشكل أي خطر جدي على الجزيرة. ولكن حـدث في أواخـر عهـد مايكـل الثـاني أن قـام رجـل يـدعى يوفيميوسEuphemius بتنظيم انتفاضة ضد الإمبراطور وتم إعلانه حاكماً للإمبراطورية . ولم يلبث هذا أن أدرك أن جيشه لم يكن على درجة من القوة تمكنه من الصمود في وجه القوات الإمبراطورية، لذلك لجأ إلى مساعدة عرب أفريقيا، الذين لم يتأخروا كثيراً في الوصول إلى جزيرة صقلية. ولكنهم بدلاً من مساعدة يوفيميوس بدأوا في احتلال الجزيرة الذي كان في اليوم السابع عشر من يونيو سنة (٨٢٧) في عهد زيـادة الله بـن الأغلـب. وقـد رسّـخ العـرب وجـودهم في مدينـة پاليرموPalermo {أو كما كانت تدعى پانورموسPanormos}. وبالتدريج استطاعوا بسط نفوذهم على الجزء الأكبر من الجزيرة، بما في ذلك ميسّنا Messina ، ومن ثم فحينما جاء حكم الأسرة العمورية إلى نهايتـه لم يتبـق في أيـدي النصـارى مـن المـدن الكـبيرة سـوى

سيراكيوزSyracuse ، وكانت الخطوة الطبيعية التالية هي أن يبدأ العرب توسعهم باتجاه المناطق البيزنطية في الجنوب الإيطالي.

وتوافق مع احتلال العرب التدريجي لجزيرة صقلية، قيام أسطولهم بشن غارات على الشواطئ الإيطالية؛ ذلك أن استيلاءهم على مدينة تارينتوم Tarentum في عهد ثيوفيلوس مثّل خطراً كبيراً ومباشراً على المقاطعات البيزنطية في جنوب إيطاليا. فقد تعرّض الأسطول البندقي الذي جاء لنجدة الإمبراطور إلى هزيمة كبرى في مضيق تارينتوم. وفي الوقت نفسه تمكن العرب من احتلال مدينة باري Bari المهمة والمحصّنة الواقعة على الساحل الغربي من شبه الجزيرة، والتي بدأوا منها في توجيه غاراتهم نحو المقاطعات الإيطالية الداخلية، الأمر الذي دفع الإمبراطور الغربي لويس الثاني إلى القدوم إلى هناك على رأس جيشه، ولكنه تعرض إلى الهزيمة وأُكره على التراجع. وفي الأربعينيات من القرن التاسع ظهر البحارة العرب أمام مصب نهر التايبر Tiber وهددوا مدينة روما ذاتها، ولكنهم لم يلبثوا أن رحلوا عن المدينة القديمة بعد حصولهم على كثير من الغنائم القيّمة.

والخلاصة فإن العلاقات البيزنطية – العربية خلال فترة وجود الأسرة العمورية (٨٢٠ – ٨٦٧) في الحكم انتهت بالفشل في الجهات الغربية. فقد خسر البيزنطيون جزر كل من كريت وصقلية؛ أما الأولى حتى سنة (٩٦١) وأما الأخرى فخسرتها إلى الأبد. كذلك استولى العرب على عدد من المواقع المهمة في جنوب إيطاليا خلال النصف الأول من القرن التاسع بالرغم من أنها لم تشكل منطقة متحدة مع بعضها. وأما

الصراع مع العرب على الجبهة الشرقية فقد أسفر عن نتائج جد مختلفة؛ حيث استطاعت الإمبراطورية الحفاظ على سلامة أراضيها الحدودية بشكل أو بآخر، وأن ما طرأ عليها من تغييرات طفيفة ليس له أي تأثير على مسار الأحداث بصفة عامة. وفي هذا الشأن يمكن القول بأن جهود الأسرة العمورية كانت على جانب كبير من الأهمية للإمبراطورية نظرًا لأن أباطرتها استطاعوا ولمدة سبع وأربعين سنة أن يصمدوا في وجه العمليات الحربية التي كان يقوم بها عرب المشرق وأن يحافظوا – بشكل عام – على سلامة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى.

لقد كانت مسألة الصراع مع العالم الإسلامي من أهم المسائل الخارجية أثناء حكم بازل أو باسل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦) مؤسس الأسرة المقدونية. وقد كانت الظروف مهيأة وقتذاك لإحراز مكاسب في هذا المضمار لأن علاقات الإمبراطورية كانت حسنة مع جيرانها؛ أرمينيا في الشرق، والروس والبلغار في الشمال، ومع البندقية ولويس الثاني ملك ألمانيا في الغرب. وإذا أضفنا إلى ذلك ظروف الدولة العباسية الداخلية وما كانت تعانيه من أزمات نظراً لتسلط العنصر التركي على مقاليد الحكم وضعف الخلفاء، وانفصال مصر عن جسد الدولة زمن الطولونيين، والحرب الأهلية بين عرب شمال أفريقيا، ومتاعب الدولة الأُموية بالأندلس، لا تضح لنا قيمة الفرصة الذهبية التي كانت أمام بازل الأول في صراعه مع عرب المشرق والمغرب على حد سواء.

لقد أسفرت الحملة العسكرية والتي افتتحت بها بدايات السبعينيات من القرن التاسع في الجزء الشرقي من آسيا الصغرى ضد

أتباع الطائفة البولصية Paulicans، عن قيام الإمبراطور بازل الأول بالاستيلاء على مدينتهم الرئيسة تفريس Tephrice، إن هذا الاحتلال لم يسفر عنه توسعة الحدود البيزنطية وحسب، ولكنه أيضا وضع بازل وجها لوجه مع عرب المشرق. وبعد خوض عدد من المعارك الصعبة، تحولت المناوشات بين الجانبين إلى صدامات ومعارك سنوية منتظمة ولكنها لم تسفر عن نتائج مهمة؛ ذلك أن الانتصارات كانت متبادلة بين الطرفين العربي والبيزنطي، ولكن تمكنت بيزنطة في النهاية من توسعة حدودها بشكل ملحوظ في آسيا الصغرى باتجاه الشرق.

وأما علاقات بازل الأول بعرب المغرب فقد اتسمت بجدية أكثر؛ ذلك أنهم امتلكوا آنذاك الجزء الأكبر من جزيرة صقلية وكانوا قد احتلوا عددا من المواقع المهمة في جنوب إيطاليا. وقد أدى اضطراب الأمور في إيطاليا إلى تدخل الإمبراطور الغربي لويس الثاني الذي احتل مدينة باري المهمة، وقد شجع ذلك على أن يقوم بازل الأول بعقد تحالف مع لويس الثاني بغرض طرد العرب من إيطاليا وصقلية. ولكن هذا التحالف فشل ولم يلبث أن تفكك. وحدث بعد أن توفى لويس الثاني أن قام أهل مدينة باري بتسليمها إلى السلطات البيزنطية.

وتمكن العرب في السبعينيات من القرن التاسع من الاستيلاء على جزيرة مالطا ذات الموقع الاستراتيجي، كما استولوا على جنوب صقلية، ثم قاموا باحتلال سيراكوزا سنة (٨٧٨) بعد حصار دام لتسعة أشهر. وبعد خسارة سيراكوزا وعدد من النقاط المهمة الأخرى في جنوب صقلية، لم يتبق للإمبراطورية البيزنطية سوى مدينة توروميميوم

Tauromemium أو تورمينا Taurmina الواقعة على الساحل الشرقي للجزيرة. وتشير المصادر إلى أن خسارة البيزنطيين لسيراكوزاتُعد نقطة تحول في سياسة بازل الأول الخارجية لأنها أدت إلى إفشال خطته التي كانت ترمي إلى شن هجوم شامل على العرب.

وعلى الرغم من النتائج السلبية التي أسفر عنها تحالف بازل الأول مع الإمبراطور الغربي لويس الثاني ضد العرب، فإن بازل حاول عقد تحالف آخر مع ملك أرمينيا آشوت باغراتيد أو باغراتوني Ashot Bagratid or (Bagratuni) وذلك بهدف إلحاق الهزيمة بعرب المشرق. ولكن بازل مات في الوقت الذي كان يحاول فيه تشكيل ذلك الحلف. ومع ذلك، فيمكن القول، أن الإمبراطورية التي تركها بازل كانت أكثر قوة وأكثر مهابة من الإمبراطورية التي استلمها.

وأما في عهد ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢) لم تحرز الحملات البيزنطية ضد العرب في الشرق أي تقدم كما لم يحقق أي من الطرفين نصراً حاسماً. وأما في الغرب فقد استطاع العرب أن يُحكموا سيطرتهم على منطقة مضيق مسيّنا –الذي يربط بين إيطاليا وصقلية وذلك بعد احتلالهم للمدينة المهمة راجيو Reggio الواقعة على الساحل الإيطالي لذلك المضيق. وفي سنة (٩٠٢) وقعت في أيديهم تاورمينا آخر معاقل البيزنطيين المهمة في صقلية، وبذلك يمكن القول بأن الجزيرة بأكملها أضحت تحت السيادة العربية، لأن المدن الصغيرة التي ظلت في أيدي البيزنطيين لم تكن على قدر من الأهمية للتاريخ المستقبلي للإمبراطورية. وإن سياسة الإمبراطور ليو السادس في النصف الثاني من

حكمه لم تعتمد مطلقا على علاقاته مع عربصقلية.

ب ـ ضعف الدولة العباسية وانقسامها:

على أن الوضع بين البيزنطيين والعباسيين في الشرق الأدنى لم يلبث أن تبدّل في نهاية القرن التاسع؛ حينما فقدت الدولة العباسية هيبتها وضعفت قوتها الأمر الذي قاد إلى تفككها وانحلالها. ويرجع السبب الرئيس في ذلك – كما يبدو – إلى إفراط المعتصم في الاعتماد على العنصر التركي الأمر الذي دفعه إلى هجر بغداد ونقل عاصمته إلى سامرا سنة (٨٣٦). وبمرور الوقت صار الخلفاء العباسيون أداة طيّعة في أيدي أمراء الأتراك، حتى غدت السلطة الفعلية في القرن العاشر في يد أولئك الأمراء الذين صار زعيمهم يتلقب بلقب "أمير الأمراء".

إن عوامل انحلال الدولة العباسية ومظاهر ذلك الانحلال تمثّل في كثرة الثورات والخلافات الدينية التي وقعت في القرن التاسع مثل الحركة الخرميّة، وحركة المعتزلة، وثورة الزنج، وثورة القرامطة والتي قادت بالتالي إلى تفكك الدولة العباسية وقيام وحدات سياسية مستقلة على حسابها مثل: الدولة السامانية (٨٧١ - ٩٩٨)، والدولة الحمدانية (٩٢٩ – ١٠٠٣)، والدولة البويهية (٩٣٢ – ١٠٥٥) وغيرها. وقد سيطر البويهيون على الجزء الغربي من بلاد فارس[1] أي ما يُعرف بعراق العجم وكرمان وخوزستان، كما سيطروا على العراق الغربي بما فيه بغداد بين سنتي (٩٤٥ و ١٠٥٥). وفي تلك الفترة اتخذ أمراء بني بويه لقب إمرة

---

[1] لأن الساماتيون غدت لهم السيطرة على الجزء الشرقي من بلاد فارس، أي خراسان وبلخ وما وراء النهر بالإضافة إلى فرغانة وخوارزم. واتخذوا بخاري وسمر قند مركزين لحكمهم.

الأمراء، وسلبوا لأنفسهم كل ما كان للخليفة العباسي من سلطان ونفوذ، حتى صار أمير الأمراء من بني بويه هو الحاكم الفعلي في الدولة.

والواقع أن بلاد الشام ومصر لم تكونا أقل تعرضاً للفوضى والانقسام من بقية أجزاء الدولة العباسية، ذلك أن الإخشيديين استقلوا بمصر والجزء الأكبر من بلاد الشام – حتى بيروت وطرابلس شمالاً – (٩٦٥ – ٩٦٩). أما شمال الشام وإقليم الموصل فقد استقل بهما الحمدانيون الذين ظلوا في منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والإخشيديين من ناحية أخرى. وقد زاد من الفوضى التي تعرضت لها بلاد الشام في تلك الفترة انتفاضة القبائل العربية والتي كانت جميعها ترتبط بعلاقات مع القرامطة. وأما الدولة العباسية نفسها فقد استمرت تنتقل أوضاعها في القرن التاسع من سيء إلى أسوأ، حتى تولى منصب الخلافة في مدى ثماني سنوات (٨٦١ – ٨٦٩) أربع خلفاء مات منهم اثنان قتلا.

العلاقات البيزنطية العربية زمن الأسرة المقدونية

ولعل ذلك الانحلال الذي أصاب الدولة العباسية والتفكك الذي اعترى وحدتها هو الذي مكّن الأباطرة البيزنطيين منذ منتصف القرن التاسع من الوقوف موقفًا أكثر حزمًا وصلابة منها. ولذلك لم يلبث أن تحوّل موقف الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر من الدفاع إلى الهجوم، وذلك حينما أدرك البيزنطيون أنهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية دولة موحّدة مثلما كان الحال أيام الأمُويين والعباسيين الأوائل، وإنما صاروا لا يرون سوى دولة مفككة أضعفتها الانقسامات

السياسية والمذهبية. وكان ذلك في الوقت الذي استولت فيه على العرش في القسطنطينية أسرة من أقوى الأسر في التاريخ البيزنطي، هي الأسرة المقدونية (٨٦٧ – ١٠٥٦)، التي نفخت في الدولة روحا جديدة بفضل ما وفرته لها من استقرار داخلي وقيادة رشيدة.

وتجدر الملاحظة إلى أن منطقة البلقان لم تعد في تلك الفترة مركز الروح الهللينية في العالم البيزنطي، وذلك بعد أن اجتاحتها عديد الشعوب السلافية والبلغارية . وكان أن ظهرت الأقاليم الآسيوية لتخلف البلقان وتصبح مركزاً للروح الهللينية منذ حوالي القرن التاسع؛ ففي آسيا الصغرى ظلت التقاليد البيزنطية قائمة، ومنها استمدت الإمبراطورية البيزنطية مواردها المالية والبشرية وبخاصة في تجيش الجيوش. أضف إلى ذلك، فإن آسيا الصغرى هي التي أمدّت الإمبراطورية بخيرة البيوت الحاكمة والقادة الأقوياء مثل آل فوكاس، وآل تزيمسكس، وآل كومنين.

وقد اتسمت بدايات القرن العاشر بعمليات ناشطة وفعّالة للأسطول العربي الإسلامي؛ ذلك أنه حتى في نهاية القرن التاسع كانت سواحل البيلوبونيز وجزر بحر إيجة تتعرض للهجمات المتكررة للبحارة العرب من جزيرة كريت. وقد صارت هذه الغارات البحرية تزداد خطورة وذلك حينما توحدت جهود الأساطيل الخارجة من كريت وتلك القادمة من سوريا. ويُعد هجوم الأسطول العربي الإسلامي على مدينة سالونيك الذي قاده اليوناني المنشق المعروف باسم ليو الطرابلسي في سنة (٩٠٤) أشهر عمل قام به العرب في هذه الفترة. وقد سقطت المدينة في أيديهم بعد

حصار طويل وشاق. ومع ذلك لم يلبث أن غادرها الفاتحون بعد أيام قلائل متجهين شرقاً إلى سوريا محملين بعديد الأسرى والغنائم الثمينة. وبعد هذه الكارثة أدركت الحكومة البيزنطية أن عليها القيام بتحصين سالونيكا الذي بدأت فيه بالفعل.

إن العمليات البحرية الناجحة للعرب دفعت بالحكام البيزنطيين إلى الاهتمام بأسطولهم وتطويره وإدخال تحسينات عليه. وكانت النتيجة إحراز نصر مؤزر على العرب في بحر إيجة سنة (٩٠٦). ولكن البيزنطيين لم يتمتعوا طويلاً بنشوة الانتصار؛ إذ لم يلبث الأسطول المتحد العربي – الكريتي أن أنزل هزيمة كبرى بأسطولهم سنة (٩١١).

ومن ثم نرى أن الصراع مع العرب كان فاشلاً إلى حد كبير في عهد الإمبراطور ليو السادس: ففي الغرب خسرت الإمبراطورية جزيرة صقلية بشكل نهائي؛ وأما في جنوب إيطاليا فلم تستطع الجيوش البيزنطية أن تحقق أي شيء يذكر وخاصة بعد استدعاء القائد نقفور فوكاس Nicephorus Phocas؛ وأما على الحدود الشرقية فقد كان العرب يتقدمون ببطء ولكن بشكل ثابت؛ وأما في البحر فقد تعرض الأسطول البيزنطي لعدة هزائم كبرى.

وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من العداء الديني حيال العرب والصدامات العسكرية معهم، فإن الوثائق الرسمية كانت أحياناً تشير إليهم بتعبيرات ودية وحميمة . وهكذا نجد بطريرك القسطنطينية المعاصر لتلك الأحداث نيقولا المستيكي Nicolas Myticus، يكتب مخاطباً حاكم جزيرة كريت ويصفه "بالأكثر تألقاً، والأكثر تبجيلاً

واحتراماً والعزيز أمير جزيرة كريت، إن القوتين في العالم بأكمله – قوة الشرقيين[1] وقوة الرومان – متفوقتان ولامعتان كنجمين عظيمين يتلألآن في السماء. ومن أجل هذا السبب وحده علينا العيش بشكل مشترك كإخوة على الرغم من اختلافنا في العادات وفي السلوك وفي الدين."

وأما خلال الفترة الطويلة التي تخللها حكم كل من قسطنطين السابع (٣١٣ – ٩٥٩) ورومانوس الأول (٩١٩ – ٩٤٤) [2] فإن الإمبراطورية لم يكن باستطاعتها مقارعة العرب بشكل فعّال حتى نهاية العقد الثالث من القرن العاشر، وذلك بسبب انشغال جيوشها في الحرب مع البلغار. ومن حسن حظ الإمبراطورية كانت الدولة العباسية تمر آنذاك بفترة انحلال وتفكك ونزاعات داخلية، وقيام سلالات انفصالية مستقلة.

على أن جهود الإمبراطورية البيزنطية للتوسع على حساب العرب في أطراف آسيا الصغرى بدأت في عهد قسطنطين السابع ثالث أباطرة الأسر المقدونية. ومن ذلك أن الجيوش البيزنطية استطاعت تحت قيادة قائد من أصل يوناني يدعى جون (يوحنا) كوركواس John Curcuas الاستيلاء على ملطية Melitene سنة (٩٣٣). وفي سنة (٩٤١– ٩٤٢) استولى على ميافارقين، وفي سنة (٩٤٤) استسلمت له مدينة الرها. ولم يلبث البيزنطيون أن استولوا على مرعش سنة (٩٤٨– ٩٤٩)، كما

---

[1] Saracens: تعارف بعض المؤرخين على إطلاق هذه الصفة على العرب والمسلمين باعتبارهم شرقيين.

[2] رومانوس الأول هو زوج أم قسطنطين السابع نصّبه معه إمبراطوراً مشاركاً حتى تم عزله بواسطة أبنائه سنة (٩٤٤).

تمكن القائد البيزنطي الجديد ليو فوكاس من الاستيلاء على طرسوس عاصمة إقليم قيليقية، ثم على ديار بكر وسميساط سنة (٩٥٨). وهكذا لم تحل سنة (٩٥٩) إلا وكان ليو فوكاس قد وصل على رأس الجيوش البيزنطية إلى ما وراء نهر دجلة.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة زعيما عربيا ظهر في هذه الفترة وهو أحد أبناء السلالة الحمدانية المستقلة التي حكمت حلب، ويدعى سيف الدولة الحمداني. وقد دخلت الإمبراطورية البيزنطية خلال السنوات الأخيرة من حكم قسطنطين السابع في معارك عنيفة مع سيف الدولة. ومع أن الجيوش البيزنطية تعرضت لهزائم عديدة في تلك المعارك، فإن المحصلة النهائية كانت رجحان كفة الجانب البيزنطي وهزيمة الجيوش العربية في المعارك التي جرت في شمال بلاد ما بين النهرين وعبور الجيوش البيزنطية لنهر الفرات. وفي خلال هذا الصراع البيزنطي العربي ميّز أحد القادة الكبار الذي يدعى جون (يوحنا) تزيمسكس John Tzimisces[1] – الذي سيصبح إمبراطوراً فيما بعد – نفسه وأظهر كثيراً من الكفاءة والمقدرة القيادية. على أن الحملة البحرية الكبرى التي تم إرسالها ضد عرب جزيرة كريت في سنة (٩٤٩)، كان مصيرها الفشل الكامل وخسارة العديد من السفن. وتذكر المصادر أن (٦٢٩) ستمائة وتسعة وعشرين من الروس Russians كانوا من ضمن المقاتلين البيزنطيين الذين شاركوا في تلك الحملة. إن المصادمات المستمرة بين

---

١ - ثمة من يترجمها حنا شمشيق.

العرب والبيزنطيين في الغرب، وفي إيطاليا وصقلية آنذاك لم يكن لها – على أي حال – أهمية كبرى على مسار الأحداث بشكل عام.

على أن تلك الانتصارات التي حققها كل من جون كوركواس وجون تزيمسكس على العرب في الجبهة الشرقية، والتي أسهمت في توسيع الحدود الإمبراطورية إلى ما وراء نهر الفرات لم تكن – على ما يبدو – سوى مقدمة لحرب شاملة عزمت الإمبراطورية البيزنطية على شنها ضد العرب المسلمين للانتقام على ما لحق بها من إذلال وهزائم على أيديهم طوال القرون الثلاثة السابقة؛ وهو ما يؤكد ما جاء على لسان المؤرخ الفرنسي رامبود Rambaud[1] : "لقد تم الانتقام لجميع إخفاقات باسل الأول؛ الطريق أصبح الآن مفتوحاً إلى طرسوس Tarsus، وأنطاكية Antioch، وقبرص Cyprus، والقدس Jerusalem لقد حُق لقسطنطين أن يبتهج ويفرح قبل موته لأن عديد الأحداث العظيمة وقعت في عهده والتي تم إنجازها من أجل المسيح. لقد فتح حقبة الحروب الصليبية بالنسبة للشرق وكذلك الغرب، وبالنسبة للهلنيين The Hellens وكذلك بالنسبة للفرنجة The Franks؛ أي الأمم الأوروبية الغربية".

وكان أن نجح القائد نقفور فوكاس – الذي سيصبح إمبراطوراً هو الآخر – في استرداد جزيرة كريت من أيدي العرب المسلمين في سنة

---

[1] - "إمبراطورية الإغريق في القرن العاشر،" (باريس، ١٨٧٠) ربما تكون أول إشارة حقيقية تبشر بقدوم الحروب الصليبية – أي حروب باسم الدين قبل بدايتها الفعلية بأكثر من قرن وربع (١٠٩٧)، وهو ما يبيّن الفرق الكبير بين عقلية الغرب الكاثوليكي المتعصب وعقلية الشرق الهلليني المتسامح في مراحل الصراع المبكرة.

(٩٦١)، وبذلك تكون الإمبراطورية قد استعادت مركزاً على قدر كبير من الأهمية من الناحيتين الاستراتيجية والتجارية في البحر المتوسط. ثم لم يلبث أن قام بغزو إقليم قيليقية Cilicia الذي كان تابعاً لسيف الدولة الحمداني، واستولى سنة (٩٦٢)على مركزين من أهم مراكز ذلك الإقليم هما عين زربة وسيس؛ ومن هناك اتجه إلى أطراف بلاد الشام لينتزع من سيف الدولة عين تاب ومنبج. وتمكن في أواخر سنة (٩٦٢) بصحبة القائد جون تزيمسكس من احتلال مدينة حلب لفترة وجيزة.

وبعد أن عاد نقفور إلى القسطنطينية حيث توج إمبراطوراً سنة (٩٦٣)، رجع إلى الشام مرة أخرى ليغزو الحمدانيين سنة (٩٦٤). وفي ذلك الوقت بالذات تعرض الحمدانيون لطعنة من الخلف من جانب بني بويه – وهم من الشيعة – إذ قام أمير الأمراء المدعو معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه بانتزاع الموصل ونصيبين منهم، ولم يرّد الموصل إليهم إلا بعد تسلّم مبلغاً كبيراً من المال.

وقد استغل نقفور فوكاس الظروف الصعبة التي تمر بها الدولة العباسية آنذاك؛ إذ لم يتردد – بعد عودته الثانية إلى الشام – في إرسال كتاب إلى الخليفة العباسي في بغداد يهدده فيه ويتوعده بأنه سيقوم بهدم الكعبة ونشر النصرانية في الشرق والغرب إذا لم ينسحب إلى بلاد الحجاز ويترك تلك البلاد لأصحابها القدامى – أي البيزنطيين، وهو ما يؤكد ظهور الروح الصليبية في الخطاب البيزنطي.

وثمة إشارة أخرى تؤكد الروح الصليبية عند هذا الإمبراطور وبداية التغير في مفهوم الصراع من جانب البيزنطيين يوردها المؤرخ ياقوت الحموي نقلاً عن اللاجئين من مدينة طرسوس، إذ يقول "إن نقفور أمر بإحضار رايتين ترمز إحداها إلى أرض الرومان، وترمز الأخرى إلى أرض الإسلام، ثم أمر المنادين أن ينادوا بأن كل من يرغب في العدالة، والنزاهة وعدم التحيّز، والأمان لممتلكاته، وعائلته وأطفاله، والحصول على طرق جيدة، وقوانين عادلة، ومعاملة حميمة، فعليه الالتفاف حول الراية الأولى؛ وأن يلتف حول الثانية كل من يؤيد الزنا، والتشريعات والقوانين الظالمة، والعنف، والابتزاز والاستيلاء على الأراضي، ومصادرة الممتلكات."

وقد مهّد استرداد قيليقية وقبرص لنقفور الطريق إلى سوريا، فأخذ يعمل على تحقيق حلم الإمبراطورية المتعلق: باسترداد أنطاكية التي تعد قلب سوريا ومركز كثير من المقدسات النصرانية الشرقية. ولم تلبث الجيوش البيزنطية أن تقدمت إلى الاستيلاء على مدينة حلب حاضرة الحمدانيين عقب سقوط أنطاكية في أواخر سنة (٩٦٩).

وتشير الاتفاقية التي تم توقيعها بين الجنرال البيزنطي وحاكم حلب إلى:

١- ترسيم الحدود بشكل دقيق وكذلك أسماء المقاطعات السورية التي استسلمت للإمبراطور البيزنطي وأسماء الأخرى التي سيصبح سيدها. وتعد مدينة أنطاكية على رأسها.

٢- أن تصبح حلب ولاية تابعة للإمبراطورية.

٣- فرض الجزية على السكان المسلمين لصالح الإمبراطورية البيزنطية، وإعفاء النصارى منها.

٤- موافقة أمير حلب على مساعدة الإمبراطور في حربه ضد غير المسلمين في تلك المقاطعات.

٥- إلزام الأمير نفسه بحماية قوافل التجارة البيزنطية التي تمر بأراضيه.

٦- التعهد بترميم الكنائس المتضررة وإعادة بناء تلك التي تهدمت.

٧- ضمان حرية الانتقال من النصرانية إلى الإسلام والعكس.

وقد تم التوقيع على هذه الاتفاقية عقب موت نقفور فوكاس في أواخر سنة (٩٦٩).

وتعد هذه الاتفاقية وما احتوت عليه أكبر إهانة يتعرض لها العرب المسلمون حتى ذلك التاريخ؛ ذلك أنه تم انتزاع قيليقية Cilicia، وجزئا من سوريا بما في ذلك أنطاكية، وتم وضع قسم كبير من أرضهم تحت سيادة الإمبراطورية البيزنطية.

وقد كتب أحد مؤرخي القرن الحادي عشر يحيى الأنطاكي Yahya of Antioch يقول: بأن السكان المسلمين كانوا على يقين من أن نقفور فوكاس سيحتل سوريا كلها وكذلك مقاطعات أخرى. "لقد أصبحت غارات نقفور تمثل نزهة لجنوده، لأن لا أحدا اعترض سبيلهم أو هاجمهم؛ لقد تحرك في أي اتجاه أراد، ودمّر أي شيء رغب في تدميره من دون أن يصادف أي مقاومة من أي مسلم، أو أي شخص آخر من الممكن أن يمنعه من القيام بما كان يرغب فيه لا أحدا

استطاع مقاومته." وهذا دليل قاطع على ما وصلت إليه أحوال العرب والمسلمين آنذاك من وهن وضعف وتفكك وانحلال.

وأما في الجبهة الغربية فقد مُنيت حروب فوكاس بفشل ذريع؛ ففي عهده استطاع العرب أن ينتزعوا من الإمبراطورية آخر مواقع لها في صقلية بحيث صارت الجزيرة بكاملها في أيديهم وتحت سيادتهم، ومن هنا فإن المشكلة الأساسية التي واجهت خليفته جون تزيمسكس (٩٦٩- ٩٧٦) تمثلت في كيفية الحفاظ على المكتسبات الجديدة في كل من قيليقية وسوريا وغيرها من المناطق.

وقد حققت حملاته ضد العرب المسلمين في الشرق كثيراً من النجاح، وكانت ذات طابع صليبي وفقاً لما جاء في الرسالة التي بعث بها جون تزيمسكس إلى حليفه آشوت الثالث Ashot III، ملك أرمينيا التي يوردها المؤرخ الأرمني ماثيو الرهاوي Matthew of Edessa والتي توضح أن الإمبراطور وفي سبيل تحقيق هدفه النهائي الرامي إلى تحرير القدس من أيدي المسلمين، قام بحملة صليبية . إذ يروى في تلك الرسالة المليئة بالخيال بأنه تحرك بجيشه من أنطاكية، ودخل دمشق، ومن خلال تحركاته باتجاه الجنوب تقدم نحو فلسطين حينما قامت مدن الناصرة Nazareth وقيصرية Caesarea بالاستسلام للإمبراطور طواعية؛ وحتى القدس نفسها بادرت بطلب الرحمة. "وإذا لم يبادر الأفارقة الوثنيون الذين يعيشون هناك"، كتب الإمبراطور في رسالته إلى آشوت، "بالاختباء بسبب الخوف في القلاع الواقعة على ساحل البحر، لاستطعنا الدخول – بعون من الله – إلى المدينة المقدسة ولصلينا شكراً

لله في الأماكن المقدسة." ولكن قبل وصوله إلى مدينة القدس، يقول جون تزيمسكس بأنه قام بتوجيه جيشه نحو الشمال على طول الساحل، واحتل عدداً من المدن في طريقه. ويضيف الإمبراطور قائلاً في الرسالة ذاتها، "اليوم كل فينيقيا، وفلسطين، وسوريا صارت متحررة من عبودية المحمديين[1] Muhammedan yoke واعترفت بسيادة البيزنطيين الإغريق."

ومن الواضح أن هذه الرسالة تحوي كثيراً من الخيال والمبالغة، ولكنها تُظهر وبكل وضوح الروح الصليبية التي صارت تغمر صدور أباطرة الأسرة المقدونية، وتسيّر تحركاتهم وهو ما يزيد في تأكيد التغير في مفهوم الصراع بين البيزنطيين والعرب المسلمين وبداية اصطباغه بالصبغة الدينية. هذا فضلاً عن أنه حينما تقارن محتويات هذه الرسالة بما أورده المؤرخ النصراني العربي يحي الأنطاكي من معلومات دقيقة وأصلية، فإنه يتضح أن النتائج التي تمخضت عنها الحملة الفلسطينية تعد أقل أهمية بكثير؛ ذلك أنه وبكل الاحتمالات لم يتجاوز الجيش البيزنطي حدود سوريا.

وعلى أي حال، فإن الحملة الناجحة الأخيرة لجون تزيمسكس لم تُسفر عن ضم المقاطعات التي تم فتحها كلها، لأن جيشه رجع إلى أنطاكية التي صارت القاعدة الرئيسة للقوات العسكرية البيزنطية في الشرق خلال الجزء الأخير من القرن العاشر.

---

[1]- يقصد المسلمين.

وأما في عهد الإمبراطور بازل الثاني(٩٧٦ – ١٠٢٥) فإن ظروف الإمبراطورية بشكل عام لم تكن مواتية للقيام بأي عمليات حربية ضد العرب في الجبهة الشرقية. وفي هذه الأثناء استطاع الفاطميون أن يسيّروا الحملات الحربية أكثر من مرة إلى المواقع البيزنطية في سوريا وإلى حلب بصفة خاصة وأن يحرروها من السيادة البيزنطية. وتحت ضغط الضربات الفاطمية أُكره بازل الثاني على توقيع معاهدة سلم مع الحاكم بأمر الله الفاطمي وذلك في مطلع القرن الحادي عشر. وهكذا تحررت حلب من السيطرة البيزنطية، كما لم تقع أي عمليات حربية وساد السلم بين الدولتين طيلة المدة المتبقية من حكم هذا الإمبراطور.

ولكن رغم علاقات السلم الرسمية، فإن سياسة الحاكم بأمر الله الفاطمي المتشددة ضد النصارى وأماكن عبادتهم لابد وأن تكون قد أزعجت الإمبراطور بازل الثاني كثيرًا بوصفه نصرانياً، ولكنه لم يكن يمتلك من القوة ما يستطيع به نصرة أبناء دينه. فقد حدث في سنة (١٠٠٩) أن أمر الحاكم بتخريب كنيسة القبر المقدس وكنائس أخرى في القدس وفي مصر وسوريا، وصادر بعضا من كنوزها، واضطهد الرهبان وأشاع الذعر بين النصارى عامة حتى يقال أن بعضهم أعلن إسلامه.

ويبدو أن باسل الثاني لم يقم بأي جهد للدفاع عن النصارى المضطهدين ولا عن أماكن عبادتهم. ولكن بعد موت الحاكم بأمر الله الفاطمي في سنة (١٠٢١) سادت فترة من التسامح تجاه النصارى مرة أخرى، وفي سنة (١٠٢٣) أُرسل بطريريك القدس المدعو نقفور إلى

القسطنطينية ليعلن أن الكنائس وممتلكاتها قد أُعيدت إلى النصارى، وأن كنيسة القبر المقدس وجميع الكنائس التي تم تدميرها في مصر وسوريا قد بدئ في إعادة بنائها – وبشكل عام – فإن النصارى صاروا ينعمون بالأمان من جديد في ظل حكم الخليفة.

وأما في الغرب فقد استمر عرب صقلية في غاراتهم على جنوب إيطاليا. وبما أن الحكومة البيزنطية كانت منشغلة بأمور أخرى، فلم يكن باستطاعتها القيام بأي شيء حيال ذلك. وقد أدى تدخل الإمبراطور الألماني أوتو الثاني – الذي تربطه صلة قرابة بالعرش البيزنطي – في الشؤون الإيطالية إلى تعرضه إلى هزيمة كبرى على يد العرب عقب تحقيقه نجاحات عديدة.

وقد شجعت حالة الفوضى التي أعقبت موت بازل الثاني العرب على شن سلسلة من التحركات الهجومية التي كانت ناجحة بشكل خاص في جهات حلب. ولكن الوضع لم يلبث أن تحسّن قليلاً؛ إذ نجح أحد قادة الجيش البيزنطي الجنرال جورج مانياسس George Maniaces في احتلال مدينة الرها في بداية الثلاثينيات من القرن الحادي عشر. وبعد سقوط هذه المدينة في يد البيزنطيين اقترح الإمبراطور رومانوس الثالث Romanus III على العرب عقد اتفاقية، نص شرطاها الأول والثاني المتعلقان بمدينة القدس على:

أولاً : أن يكون من حق النصارى إعادة بناء جميع الكنائس التي تم هدمها، وأما كنيسة القبر المقدس فيتم ترميمها على نفقة الخزانة الإمبراطورية.

وثانياً : يحتفظ الإمبراطور بحق تعيين بطريريك القدس. وبعد مفاوضات طويلة تم التوقيع على تلك الاتفاقية في سنة (١٠٣٦).

وأخيرًا، يمكن القول أن الإمبراطورية البيزنطية في ظل حكم الأسرة المقدونية استطاعت – بفضل جهود الأباطرة الذين تم ذكرهم وغيرهم من القادة – أن تحرز انتصارات مهمة في الجبهة الشرقية، وأن توسّع حدودها على حساب الأراضي العربية، وأن تقيم لها نفوذًا في منطقة الفرات وفي سوريا وأن تحتل مدينة أنطاكية وتضمها إلى أراضيها. بينما فشلت في إحراز أي نجاحات عسكرية دائمة على الجبهة الغربية؛ فقد استمرت صقلية خاضعة للعرب وتواصلت غاراتهم على جنوب إيطاليا. وفي منتصف القرن الحادي عشر بدأت الإمبراطورية البيزنطية تواجه خصماً جديداً تمثل في السلاجقة الأتراك الذين صارت لهم شهرة وصيت كبيرين في المرحلة التالية من التاريخ البيزنطي.

علاقة بيزنطة بالأتراك السلاجقة

إن هجرة الترك إلى خراسان والعراق والجزيرة والشام وآسيا الصغرى مع الفتح السلجوقي في القرن الحادي عشر، تعد حدثًا في غاية الخطورة لأنه افتتح مرحلة جديدة مختلفة عما سبقها ليس فقط في تاريخ الإسلام وديارة ولكن في تاريخ النصرانية والإمبراطورية البيزنطية مع عالم العصور الوسطى. ذلك أنه منذ هذا القرن بدأت أجزاء من العالم

العربي الإسلامي تخضع بصورة متوالية تحت الحكم التركماني[1] السلجوقي.

إن الموطن الأصلي للشعوب التركية هو سهوب أوراسيا التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي سابقًا أو الصين الشعبية. ولقد عرف الجغرافيون العرب هذا الموطن باسم تركستان، واعتبروها جزءًا من منطقة بلاد ما وراء النهر، أي نهر جيحون OXUS وشملت جميع الأصقاع الواقعة بينه وبين الصين واستوطنها البدو الأتراك والمغول.

لقد عرفت الإمبراطورية البيزنطية الترك قبل القرن الحادي عشر، وكان لها علاقات معهم؛ فاستخدمت كثيرين منهم مرتزقة في جيوشها.

أصل السلاجقة:

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغُزّية أو ما يعرف بالغزّ الكبير، وينتمون إلى جدٍ هو دقاق[1]، واستوطنوا في الأراضي الواقعة في أقصى بلاد التركستان. وسُمّوا بالسلاجقة نسبة إلى سلجوق بن دقاق .

وكان السلاجقة ، منذ دخولهم في الإسلام بعد اتصالهم بالسامانيين، يحاولون تحت ضغط الظروف السياسية والاقتصادية أن يجدوا لهم مخرجًا وأرضًا يهاجرون إليها ، وقد حققوا غايتهم بعبور نهر جيحون إلى خراسان، وهو أمر يسّر لهم حرية الحركة والانتشار في تلك

---

[1] ويبدو أن اسم تركمان كان اسمًا سياسيًا شمل عددًا من القبائل التركية بما في ذلك عنصر الغزّ . وأن كلمة تركمان كانت تستعمل في القرن الحادي عشر مرادفة لكلمة الغز او الأتراك المسلمين .

[1] ورد في بعض الروايات "تقاق" و"يقاق" .

المناطق، وكان بداية لمرحلة جديدة من حياتهم في سبيل إقامة دولة، وسببًا في إضعاف الدولة الغُزنوية. فقد استمرت محاولات السلاجقة في الخروج على الغُزنويين وإقامة دولتهم الخاصة بهم من سنة (١٠٢٨) حتى سنة (١٠٣٨) حينما دخل زعيمهم طغرل بك على رأس جيشه إلى نيسابور في مايو من تلك السنة، وجلس على عرش مسعود الغُزنوي معلنًا نفسه سلطانًا، وصارت أقوى مراكزه مدينة بلخ في الشرق ونيسابور في الغرب. ولم يلبث طغرلبك بعد إعلانه السلطنة السلجوقية أن كتب رسالة للخليفة العباسي القائم (١٠٣١ – ١٠٧٥) يشرح فيها ما آلت إليه الأوضاع السياسية، ويطلب منه الاعتراف بدولته الجديدة.

والواقع أن موجة الأتراك السلاجقة التي انسابت إلى بلاد الشام ارتبطت بالمدى الذي وصلت إليه العلاقة بين أفرادها وبين الدولة البيزنطية، في ظل تراجع قوة الفاطميين هناك؛ ذلك أنه في الوقت الذي دخلت الإمبراطورية البيزنطية فيه حالة من الركود والضعف بعد زوال الأسرة المقدونية في سنة (١٠٥٦)، وما تلا ذلك من صراع بين الأرستقراطيتين العسكرية والمدنية، ظهر السلاجقة على حدود الإمبراطورية.

وكانت أرمينيا تشكل طوقًا أمام تقدم السلاجقة في آسيا الصغرى، لذلك فإن كسر ذلك الطوق كان من الأهمية بمكان تمهيدًا للتوغل داخل الأراضي البيزنطية. ذلك أنها قد شكّلت منذ زمن دويلة حاجزة buffer state بين البيزنطيين والفرس الساسانيين، وقد أدى الصراع حولها إلى تقسيمها بينهما في القرن الرابع. وحظيت الإمبراطورية

البيزنطية بالجزء الغربي الأصغر حجمًا والذي يضم مدينة إرزروم Erzerum، بينما وقع الجزء الشرقي الأكبر حجماً تحت السيادة الفارسية بما في ذلك مدينة پيرسارمينيا Persarmenia . وفي القرن السابع، وبعد فتح العرب لسوريا وتغلبهم على الفرس، استولوا على أرمينيا. ولكن وبسبب إهمال العرب لها قامت عدة محاولات لانفصالها عنهم. وفي النصف الأول من القرن العاشر استطاع ملكهم آشوت الثاني بمساعدة كل من الجيش البيزنطي وملك إيبيريا Iberia (جورجيا، غريزيا، Gruzia، Georgia) من طرد العرب منها بصفة شبه كلية.

وقد وقعت غارتان كبيرتان في عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٣ –١٠٥٤) نفذهما السلاجقة على الأراضي البيزنطية، الأولى سنة (١٠٤٨) بلغ مداها مدينة طرابزون على شاطئ البحر الأسود. وتصدى البيزنطيون لتلك الغارة ونهضوا لقتال السلاجقة ولكنهم انهزموا.

ويبدو أن البيزنطيين لم تكن لديهم الرغبة في السماح للسلاجقة – الذين استشعروا قوتهم – بالتمركز على حدودهم، لأنهم قد يشكلون خطرًا عليهم، وفضّلوا التعاون مع الفاطميين الضعفاء للوقوف في وجه الزحف السلجوقي وتفعيل الهدنة الموقعة بينهما.

ونتيجة لهذا التوجه السياسي، جدد السلطان طغرلبك غاراته على الأراضي البيزنطية والضغط على البيزنطيين، فقام بمهاجمة إقليم قارس في سنة (١٠٥٢) الذي يعد من مفاتيح أرمينيا، كما يعد اجتياحه

مقدمة للحملة الكبيرة التي سيقوم بها السلطان طغرلبك ضد الأراضي البيزنطية . وفعلاً ، قاد حملة عسكرية ضخمة سنة (١٠٥٤)، فغزا الأراضي الأرمنية ووصل إلى إرزروم، ثم تقدم وحاصر مانزيكرت التي استعصت عليه بسبب ما أبدته من مقاومة باسلة، الأمر الذي دفعه إلى الانسحاب والعودة إلى أذربيجان.

وقد ترتب على التوغل السلجوقي في عمق الأراضي البيزنطية، وتنفيذهم لغارات ناجحة، أن عرض السلطان السلجوقي على الإمبراطور البيزنطي مشروعًا للتحالف موجّه ضد الفاطميين؛ وهو أمر كان طغرلبك يسعى إلى تحقيقه ورفضه البيزنطيون مرارًا خوفًا من تنامي قوة السلاجقة الذين كانوا يهدفون إلى القضاء على الدولة الفاطمية في مصر. ولاشك بأن الرفض البيزنطي لمشروع المشاركة في تدمير الفاطميين كان من الأسباب التي حملت السلطان طغرلبك على مباشرة الحرب بنفسه على جبهة أرمينيا قبل أن يتوجه إلى بغداد التي حل بها في سنة (١٠٥٥) وتمكن من القضاء على الدولة البويهية وإنهاء وصايتها على الخليفة العباسي الذي صار منذ ذلك الحين تحت حماية السلاجقة الذين حكموا بغداد من خلال مندوبين عنهم.

ويرى بعض المؤرخين – وهم على صواب – في أن ما قام به طغرلبك من إنقاذ للخلافة العباسية والمذهب السنّي يُعد عملاً حقق للمسلمين قدرًا كبيرًا من الوحدة هم أحوج ما يكونوا إليها آنذاك؛ فصارت إيران – مقر السلطنة – والعراق تكوّن وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسي، وبالزعامة الدنيوية للسلطان

السلجوقي. لأن الدولة العباسية كانت قد تقطعت أوصالها في القرن الحادي عشر وتحولت إلى عددٍ من الإمارات والدويلات المستقلة مثل : إسبانيا، ومصر، وإفريقيا التي كانت لها حياة سياسية مستقلة عن الخلافة في بغداد، فضلاً عن إيران، وسوريا، وبلاد ما بين النهرين التي كانت تحكم من قبل سلالات متعددة ومستقلة عن العباسيين.

وقد تبدّل الموقف في العالم الإسلامي عند وفاة طغرلبك سنة (١٠٦٣)، حيث صار السلاجقة يشكلون عنصرًا على درجة كبيرة من الأهمية في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، لأنهم بدأوا يشكلون خطرًا داهمًا على المقاطعات الحدودية في آسيا الصغرى وفي القوقاز Caucasus؛ وذلك بعد أن كانت بيزنطة تواجه على حدودها دولة إسلامية منحلة سياسياً ومنقسمة على نفسها مذهبيًا وحربيًا. وفي العقد الرابع من القرن الحادي عشر استطاع الإمبراطور قسطنطين التاسع ضم أرمينيا بعاصمتها الجديدة آني Ani إلى الإمبراطورية؛ ومن ثم صار أي اعتداء عليها يُعد اعتداءً على الإمبراطورية لأنها لم تعد تشكل دويلة حاجزة بينها وبين الأتراك.

ومع أن الأتراك السلاجقة استطاعوا في عهد قسطنطين التاسع (١٠٤٢ – ١٠٥٤) مد غاراتهم إلى جميع أنحاء أرمينيا تقريبًا، إلا أنهم فشلوا في احتلال مركزٍ قوي يثبتون فيه. ويمكن القول بأن ذلك الوضع استمر حتى وفاة السلطان طغرلبك سنة (١٠٦٣) ؛ أي أن غاراتهم كانت غالبًا ما تستهدف السلب والنهب دون أن يحاول السلاجقة الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل أراضي الإمبراطورية البيزنطية.

موقعة مانزيكرت (١٠٧١) :

وبموت طغرلبك وقيام خليفته السلطان ألب أرسلان (١٠٦٣ – ١٠٧٢) مكانه في الحكم، تبدلت سياسة السلاجقة تجاه البيزنطيين ودخلت دورًا جديدًا ، إذ صارت هذه السياسة تستهدف الاستيلاء على أراضي تلك الدولة والاستقرار فيها، بدلاً من مجرد القيام بغارات محدودة للنهب والسلب. ففي سنة (١٠٦٥) استطاع ألب أرسلان الاستيلاء على آني ثم على قارس، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينيا، والمركزان الرئيسان لقوة البيزنطيين ونفوذهم في الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى. ومنذ ذلك الحين صار الطريق مفتوحًا أمام السلاجقة إلى داخل الأناضول بعد أن استولوا على أرمينيا وأجزاء من سوريا، وقيليقية Cilicia، وقبادوقيا Cappadocia، وعاصمتها قيصرية Caesarea سنة (١٠٦٧). كل ذلك وقع والإمبراطور قسطنطين العاشر (١٠٥٩ – ١٠٦٧) عاجزًا عن الوقوف في وجه السلاجقة.

على أن الأوضاع لم تلبث أن تحسّنت نوعًا ما بفضل اعتلاء العرش البيزنطي رجلاً نشيطاً على جانب من الكفاية الحربية هو رومانوس الرابع(١٠٦٧ – ١٠٧١)، الذي بدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية في دولته، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطي الذي غدت الفرق الرئيسة فيه تتألف من جند مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركمان الآسيويين إضافة إلى الفرنجة[1] الغربيين. وبهذا الجيش غير المتجانس شرع رومانوس الرابع في استرداد الأناضول حتى نهر الفرات شرقًا من أيدي

---

[1] اسم قُصد به آنذاك كل الجنسيات الأوروبية الغربية.

السلاجقة. وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي أحاطت برومانوس ومهمته، فإنه نجح إلى حدٍ كبير في تحقيق نجاحات في المعارك المبكرة. ولكن خفة السلاجقة وسرعة حركتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ما كان يأمل.

على أن آخر حملة عسكرية لرومانوس الرابع انتهت بهزيمة ماحقة في موقعة مانزيكرت Manziker (ملازغيرد Melazgherd) في أرمينيا إلى الشمال من بحيرة ان Lake Van، ووقوع الإمبراطور البيزنطي في الأسر. وعلى إثر ذلك جرت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن عقد اتفاقية سلام بينهما من أهم بنودها :

١- إطلاق سراح الإمبراطور مقابل دفعه فدية كبيرة من المال.

٢- تتعهد بيزنطة بدفع جزية سنوية للسلاجقة وإطلاق سراح جميع أسراهم.

وتُعد موقعة مانزيكرت من المعارك الحاسمة في التاريخ البيزنطي بشكل خاص وتاريخ المنطقة بشكل عام لما ترتب عليها من نتائج على قدر كبير من الأهمية أبرزها :

أ- إن الإمبراطورية البيزنطية وإن لم تتنازل عن أي أرض للسلطان ألب أرسلان، فإن خسائرها كانت جسيمة، لأن الجيش الذي كان عادة ما يقوم بالدفاع عن حدود الإمبراطورية في آسيا الصغرى وحمايتها جرى القضاء عليه بصفة شبه تامة، فلم تعد بمقدورها صد هجمات السلاجقة في تلك الجهات.

ب- شكلت هزيمة مانزيكرت الضربة النهائية التي قضت على الوجود البيزنطي في آسيا الصغرى والتي تُعد أهم جزء في الإمبراطورية البيزنطية عسكريًا واقتصاديًا.

ج- تُعد معركة مانزيكرت أعظم كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الحادي عشر، كما أنها جاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية النصرانية من ضغط الإسلام، وفي حماية البوابة الشرقية لأوروبا من غزو السلاجقة وهو أمر دفع بأوروبا الغربية إلى التدخل – كما يرى كثير من المؤرخين – في المشرق العربي في هيئة الحروب الصليبية سنة (١٠٩٥) كرد فعل على ما حصل في سنة (١٠٧١)، وفي الوقت نفسه العمل على وقف الصحوة الإسلامية التي نهضت على يد السلاجقة.

ويبدو أن السلطان ألب أرسلان لم يكن يطمع في أكثر من أن تقف الإمبراطورية البيزنطية على الحياد إزاء جهود السلاجقة لإقامة دولة إسلامية موحدة في منطقة الشرق الأدنى. ومن ثم فبدلاً من أن يستغل انتصاره ويستثمره في محاولة احتلال ما تبقى من آسيا الصغرى، إذا به يتوجه سنة (١٠٧٢) إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر (جيحون) حيث قتل هناك.

على أن الإمبراطورية البيزنطية دخلت في دوامة من الفوضى السياسية امتدت من (١٠٢٥ حتى ١٠٨١)، حيث تصارعت فيها الأرستقراطيتين العسكرية والمدنية، وأدت إلى تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية بصفة عامة. وقد أفاد السلاجقة من ذلك الوضع وجددوا

هجماتهم وواصلوا توسعهم في آسيا الصغرى. وقاد هذه المرحلة أحد أقارب السلطان ملكشاه وهو سليمان بن قُتُلمش.

تطور مفهوم الحرب لدى الغرب ودور الكنيسة فيه :

كان الغرب منذ مولد النظام الإقطاعي في فرنسا منهمكا في حروب خاصة لا تكاد تنقطع. وقد جاء الإقطاع إلى فرنسا – قبل غيرها من الدول الأوروبية – نتيجة لضعف السلطة المركزية، التي لم تستطع الصمود في وجه غزوات الشماليين التي اجتاحتها منذ القرن التاسع الأمر الذي أدى إلى تفككها وانهيارها، وقيام كيانات سياسية مستقلة محلها تولّت الدفاع عن مصالحها ومصالح فرنسا بشكل عام.

وبما أن النظام الإقطاعي يقوم في جوهره على مصالح متبادلة بين السيد وأتباعه، وأن أولئك الأتباع هم من الفرسان، من ثم فإن الجانب الحربي العسكري يُعد الأصل الذي ترتكز عليه تلك العلاقة. وبما أن لكل سيد إقطاعي جيشه من الأتباع الفرسان، وأن لكل منهم طموحاته في مد نفوذه وحيازة أكبر قدر من الأراضي والأطيان الزراعية، فإن حروبًا خاصةً كانت كثيرًا ما تنشب بينهم. وترتب على تلك الحروب كثير من الدمار والخراب للأراضي و المحاصيل الزراعية. ولذلك رأت الكنيسة الغربية الإفادة من ضراوة أولئك الفرسان وشغفهم بالقتال واستغلال ذلك وتسخيره فيما يخدم أهداف الكنيسة .

وكان العرب المسلمون قد بسطوا سيطرتهم على حوض البحر المتوسط منذ انطلاق فتوحاتهم الأولى التي شملت الساحل السوري وكل الشمال الأفريقي والأندلس، ثم لم يلبثوا أن مدّوا نفوذهم إلى جنوب

إيطاليا وجزر البحر المتوسط بما في ذلك جزيرة صقلية. ولم تنس الكنيسة ورجالها ذلك للعرب المسلمين وصارت تتحين الفرص للنيل منهم وطردهم؛ خاصة وأن المناطق التي امتد إليها نفوذهم كانت تدين بالنصرانية جميعها.

وأما في الشرق، فعلى الرغم من الحروب الكثيرة التي كانت قائمة بين العرب المسلمين و الدولة البيزنطية؛ فإنه لم يحدث قط أن ظهر بين البيزنطيين داعية يدعو إلى شن حرب مقدسة عليهم؛ وحتى موضوع استرداد الأماكن المقدسة في فلسطين وانتزاعها من المسلمين، كان البيزنطيون ينظرون إليه على أنه شأن سياسي يتعلق بمهام الدولة. إذن لم يكن مفهوم الحرب المقدسة قائمًا في أذهان البيزنطيين لا حكومةً ولا شعبًا إلا باستثناء فترة حكم نقفور فوكاس وجون تزيمسكس من أباطرة الأسرة المقدونية، حتى الإعلان عن قيام الحروب الصليبية؛ ذلك أن علماء اللاهوت في الإمبراطورية البيزنطية أدانوا الحرب باسم الدين صراحة.

وأما في الغرب فقد تطور مفهوم الحرب. كانت تعاليم السيد المسيح – عليه السلام – تدعو إلى السلام ونبذ العنف، وكان على الكنيسة– التي يدعى رئيسها البابا بأنه خليفة المسيح – إتّباعها وتطبيقها. ولكن ذلك لم يكن يصب في مصلحة الكنيس ويحقق أهدافها. لذلك أخذت الكنيسة و الغرب الأوروبي بأكمله بآراء القديس أوغسطين حول مفهوم "الحرب العادلة Bellum Iustum" أو الحرب الدفاعية. وهي الحرب التي ترى الكنيسة فيها أ- دفاعًا عن العالم

التصراني، ب- أو ترى فيها توسعة لحدوده، ج- أو استردادًا لأرض محتلة.

إن " الحرب العادلة " – كما كانت تسمى – و التي قصدها القديس أوغسطين هي تلك الحرب التي تُشن ضد الكفار أي غير النصارى، لكن مفهومها اكتسب أهمية كبرى أثناء تعرض أوروبا لغزو خارجي ثانٍ في القرنين التاسع و العاشر من قبل الشعوب الإسلامية و الهنغارية والإسكندينارية، ولكن الكنيسة الغربية استغلته للترويج لفكرة الحروب الصليبية وجعلته يقتصر على العرب المسلمين.

واكتفت الكنيسة – حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر – بمجرد مباركة الحروب التي تعدّها مقدسة وتشجيعها، وذلك عن طريق قيام الباباوات بإصدار الفتاوى التي تَعِد المشاركين في تلك الحروب بمحو الآثام وغفران الذنوب واكتساب الشهادة والخلاص. ومن الأمثلة على ذلك ما جرى من حروب ضد الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا وجنوب إيطاليا وجزيرة صقلية؛ ففي سنة (٨٤٨) وعد البابا ليو الرابع كل من يموت في سبيل الدفاع عن الصليب بالأمل الأكيد في الخلاص. وفي حوالي سنة (١٠١٦) انتزع البيازنة – نسبة إلى مدينة بيزا – جزيرة سردينيا من أيدي المسلمين بتحريض من البابا بنيديكت الثامن. وأما انتزاع جزيرة صقلية – فيما بعد – من أيدي المسلمين واستيلاء النورمنديين عليها، فيمكن اعتباره حربًا صليبية قبل الحروب الصليبية المعروفة؛ لأن الباباوات أضحوا منذ سنة (١٠٥٩) حلفاء للنورمنديين ومن ثم، فإن ما جرى من حرب ضد الوجود العربي الإسلامي في صقلية منذ

سنة (١٠٦٠)، يمكن اعتبارها حربًا مقدسة حرصت البابوية على تغذيتها وتأييدها.

وبالتدريج تبلور لدى الكنيسة مفهوم في هذا الشأن مفاده :-

١- إذا كانت السلطة الزمنية – الدولة – عاجزة أو كانت معادية للكنيسة، فإنه يحق للبابوية، بل يصبح من واجبها إعلان الحرب متى رأت ذلك ضروريًا.

٢- إن الخدمة العسكرية التي كانت تؤدى للدولة من شأنها أن تؤدى للكنيسة.

ومن هنا جاءت فكرة استغلالها للحروب الداخلية المدمرة التي كانت كثيرًا ما تنشب بين السادة الإقطاعيين وتحويلها إلى حرب مقدسة تخدم أغراضها وتوجّهاتها. فعلى سبيل المثال: حينما أعلن البابا أوربان الثاني عن قيام الحروب الصليبية، كان أول عمل قام به هو تمديد العمل بهدنة الله و سلام الله والتي تعني توقف الحروب الخاصة وتوجيه القائمين عليها و المشاركين فيها من الفرسان إلى محاربة المسلمين في الشرق وانتزاع الأماكن المقدسة من أيديهم.

وبإيجاز، يمكن القول أن الغرب الأوروبي اختص بهذا التطور دون غيره؛ ذلك أن هذه الفكرة – فكرة الحرب المقدسة – كانت بعيدة كل البعد عن العقلية البيزنطية الرسمية أو الشعبية، – كما أسلفنا –على الرغم من كثرة الحروب التي خاضتها بيزنطة ضد العرب المسلمين. فالبابوية أسبغت على هذه الفكرة الصفة الرسمية حينما اعتبرت المشاركة في أي حرب تقول أنها " مقدسة " من عوامل الخلاص

بالنسبة للمشارك. وفي المقابل لم تعط كنيسة القسطنطينية دعمها لأي فكرة تتعلق بأي حرب مقدسة أبدًا ، فضلاً عن أن الفصل بين السلطتين الدينية و العلمانية الموجود في الغرب، لم يكن له مثيل في الشرق؛ ومن ثم فإن فكرة قيام حرب منظمة تشرف عليها الكنيسة لم تكن واردة.

وهكذا ، وبما أن الكنيسة الغربية هي التي ابتكرت الحروب الصليبية ، ولأن رجال الدين النصارى يؤمنون بالحج من أجل التوبة ، فإنه يجوز– من وجهة نظر الباباوية– أن تتحول الحرب ضد المسلمين في الشرق إلى الحج إلى كنيسة القيامة.

انتقال الصراع مع الغرب وبداية الحروب الصليبية :

واستمر السلاجقة في التقدم باتجاه الغرب أكثر فأكثر من دون أن تستطيع قوات الإمبراطورية البيزنطية الضعيفة التصدي لهم، ويبدو أن تحركاتهم تلك شكلت خطراً على العاصمة القسطنطينية الأمر الذي دفع الإمبراطور ميخائيل السابع دوكاس إلى أن يبعث في أواخر سنة (١٠٧٣) برسالة إلى البابا غريغوري السابع[1] Gregory VII يطلب منه فيها حث الغرب الأوروبي على مساعدة الدولة البيزنطية في وقف الخطر السلجوقي ويعده – في مقابل ذلك – بالعمل على اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، وهو الحلم الذي لم يفارق أذهان بابوات

---

[1] تولى غريغوري السابع العرش البابوي في الفترة من (١٠٧٣ إلى ١٠٨٥) ويأتي هذا البابا على رأس قائمة الباباوات الإصلاحيين المتشددين، والمتعصبين للنصرانية والمنادين بنشرها في العالم المعروف آنذاك، والقائلين بسمو السلطة الدينية على السلطة الزمنية، والداعي إلى وجوب تأسيس فرقة عسكرية تابعة للمؤسسة البابوية يمكن تسخيرها ضد كل من يخالف تعاليمها أو يخرج عن طاعتها.

كنيسة روما منذ أن تأسست مدينة القسطنطينية وكنيستها سنة (٣٣٠). ولم يتأخر البابا غريغور السابع في إرسال عدد من الرسائل إلى أمراء أوروبا وحكامها وإلى كل النصارى (ad emnes christianos)، يقول لهم فيها " أن الوثنيين يمارسون ضغوطات شديدة على الإمبراطورية النصرانية ، وخرّبوا كل شيء بوحشية لم يسبق لها مثيل حتى أسوار القسطنطينية تقريبًا." ولكن توسلات غريغوري تلك لم ينتج عنها أي نتائج عملية ، كما لم تحصل بيزنطة على أي مساعدات من الغرب.

وعلى العموم، قام البابا غريغوري السابع بإرسال المناشير والرسائل إلى ملوك أوروبا وأمرائها يحثهم على مساعدة إخوانهم البيزنطيين، ولكن من دون جدوى. الأمر الذي دفعه – كما تشير المصادر – إلى قيامه شخصياً بتجهيز حملة بقيادته وتكون تحت الإشراف المباشر للكنيسة . ولكن انفجار الصراع بينه وبين ملك ألمانيا هنري الرابع حول مسألة التقليد العلماني[1] سنة (١٠٧٥) منعه من إتمام مشروعه الصليبي.

وتُعد تلك الرسالة الأولى من نوعها في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية حتى ذلك الحين، يبعث بها حاكم بيزنطي إلى البابوية يطلب منها استنهاض حكام أوروبا وملوكها لنجدة بلاده ومساعدتها في الوقوف ضد الأخطار الخارجية المحدقة بها. كما أنها سابقة صارت سنّة عمل بها أباطرة آخرون، وكانت بداية لدخول الصراع مرحلة جديدة تُعد

---

[1] التقليد العلماني يعني قيام السلطات العلمانية بتقليد رجال الدين في المناطق الخاضعة لحكمهم بشارات السلطة وهي الخاتم والصولجان رمز السلطة الدينية.

الأخطر في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وانتقاله إلى المواجهة المسلحة المباشرة مع الغرب فيما عُرف بالحروب الصليبية.

أ ـ الحرب ضد المسلمين في جنوب إيطاليا وصقلية ودور البابوية فيها:

كان العرب المسلمون قد بسطوا سيادتهم علي جزر البحر المتوسط منذ القرن الثامن، كما تم لهم الاستيلاء علي صقلية بشكل تام سنة(903) بعد حروب شاقة وطويلة مع البيزنطيين، ثم توغلوا بعيداً في أرجاء مختلفة من شبه الجزيرة الإيطالية.

ولكن ميزان القوي بدأ ينحاز إلي جانب القوى المعادية للسيادة الإسلامية في تلك الجهات بظهور قوتين على مسرح الأحداث الإيطالية هما: مدينتا بيزا وجنوا، والقوة النورمندية.

فأما مدينة بيزا الإيطالية فقد عانت من هجمات المسلمين منذ سنة(935)، ثم بعد ذلك في سنة(1004)وسنة (1011)، لذلك تحالفت مع مدينة جنوا من أجل صد الهجمات الإسلامية أولاً، ثم محاولة انتزاع الجزر التي بيد المسلمين ثانياً. وقد تم ذلك بمباركة البابوية التي أعلنت سنة(1004)أن جزيرة كورسيكا هي ملك لأي قوة نصرانية تستطيع انتزاعها من أيدي المسلمين. وفعلاً تمكنت قوات التحالف البيزاوي – الجنوي من استردادها سنة(1015)وقاموا في سنة(1061)بشن هجوم على مدينة باليرمو في صقلية.

لقد شجعت الأوضاع العامة المتردية في تونس في تلك الفترة على تكرار اعتداءات المدن الإيطالية عليها؛ فقد كانت البلاد التونسية تمر

بفترة صعبة للغاية منذ منتصف القرن الحادي عشر بسبب قيام السلطات الفاطمية في مصر بتحريض قبائل بني هلال سنة(١٠٥١) على غزوها وذلك لخلع السلطات الزيرية في تونس ولاءها للفاطميين وإعلان ولائهم للبيت العباسي الحاكم في بغداد. فانتهزت البابوية الفوضى التي كانت تعيشها تونس من جراء ذلك ودعت إلى قيام حملة عسكرية. وفعلاً هاجم الإيطاليون العاصمة التونسية المهدية سنة(١٠٨٧)، وأرغموا حاكمها على توقيع اتفاقية تضمنت بنودها:

١-دفع السلطات التونسية غرامة حربية.

٢-إطلاق جميع الأسرى النصارى.

٣- الامتناع عن مزاولة ما يسمونه القرصنة.

٤- إعفاء البضائع التي تحملها السفن البيزاوية – بشكل خاص – من دفع الجمارك.

وتُعد هذه الحملة من الأعمال الرسمية التي تبنتها البابوية والتي سبقت الدعوة لقيام الحملة الصليبية الأولى.

وأما النورمنديون فقد ظهروا في جنوب إيطاليا مع مطلع القرن الحادي عشر كجنود مرتزقة. ولم يلبث عددهم أن ازداد شيئاً فشيئاً حتى بلغوا من القوة شأناً كبيراً؛ حيث أفادوا كثيراً من تبديل مواقفهم بين الأطراف المتحاربة حسبما تقضيه مصلحتهم. فصار لهم من القوة والأرض الشيء الكثير؛ إذ ما لم يُعطوه مقابل خدماتهم الحربية أخذوه بالقوة. وكان النورمنديون عاملاً رئيساً في زيادة اتساع ممتلكات البابوية ونمو سلطانها السياسي؛ فقد استخدمتهم ضد البيزنطيين في أول

الأمر، ثم عقدت معهم اتفاقاً سنة(١٠٥٩) يقوم النورمنديون بموجبه بتسليم ما يستولون عليه من أراضٍ ومواقع كانت خاضعة للبيزنطيين إلى المؤسسة البابوية التي صارت تؤيدهم وتبارك حروبهم ضد المسلمين في جنوب إيطاليا وصقلية.

وظهر النورمنديون في صقلية أواخر الثلاثينيات من القرن الحادي عشر، وأفادوا كثيراً – مرة أخرى – من الضعف العام الذي انتاب الإمارات العربية الإسلامية آنذاك، والتفكك السياسي والفُرقة التي عمّقها تنافس حكامها وصراعهم على السلطة، واستعانتهم بالجيوش النورمندية ضد بعضهم. وعلى العموم فقد دامت الحرب سجالاً بين الجانبين العربي الإسلامي والنورمندي منذ سنة(١٠٦٠) حتى(١٠٩١)حيث انتهت بانتصار النورمنديين الذين استتب لهم الأمر في صقلية. كما تمكنوا من احتلال جزيرة مالطا في السنة نفسها. وبذلك انحسرت السيادة الإسلامية البحرية في تلك الجهات وصار الشمال الإفريقي مرتعاً وميداناً للتنافس بين المدن الإيطالية والنورمنديين فيما بعد.

ب- الحرب ضد المسلمين في إسبانيا ودور البابوية فيها:

لقد رأينا دور البابوية ودعمها وتحريضها للمدن الإيطالية بيزا وجنوا على محاربة العرب المسلمين واسترداد المدن والجزر التي كانت في أيديهم باسم الدين وما أسمته "الحرب المقدسة"، ثم تحالفها مع النورمنديين ومباركة حربهم ضد العرب المسلمين في صقلية إلى أن تم لهم انتزاعها من أيديهم في عام (١٠٩١). ويتكرر المشهد هنا مرة أخرى

في إسبانيا؛ إذ لم تلبث الكنيسة الغربية أن أخذت بزمام الأمور من رهبان دير كلوني[1] الذين كانوا يتولون الرعاية واستقطاب الفرسان من جميع أنحاء أوربا – وبخاصة من فرنسا – وتجنيدهم للقدوم إلى إسبانيا والإسهام في الحرب ضد المسلمين، وأضفت عليها الصبغة الدينية وذلك بمباركتها وإصدار الفتاوى للمشاركين فيها بالخلاص النهائي ومغفرة الذنوب.

لقد بدأ الوهن والضعف يدب في أركان الدولة الأُموية بالأندلس منذ مطلع القرن الحادي عشر– أي منذ عام (١٠٠٢) تقريباً – إذ لم تحل سنة (١٠٣١) حتى انهار بنيانها وتقطعت أوصالها وتأسس على أنقاضها (٢٣) ثلاث وعشرون إمارة تتصارع وتتحارب فيما بينها، وتتنافس في طلب المعونة من العدو المشترك الذي لن يتأخر في القضاء عليها جميعاً.

وفي هذه الأثناء تمكن الفونس السادس من توحيد كل من أستوريا، وليون، وقشتالة وجمعهم تحت رايته. وكان في الوقت نفسه على دراية تامة بما كان يجري بين الأمراء العرب، أو كما كانوا يسمّون "ملوك الطوائف" من تناحر، فقرر الإفادة من ذلك عن طريق ضرب الواحد بالآخر حتى يتمكن من القضاء عليهم جميعاً آخر الأمر؛ حيث أدرك أن كل ما عليه فعله هو مد الحبل بشكل كافٍ لأولئك

---

[1]- تأسس هذا الدير في مقاطعة برغنديا بجنوب فرنسا سنة (٩١٠)، وكان مركزاً نبعث منه حركة إصلاحية كبرى قصد منها إصلاح وضع الأديرة وما آلت إليه تدنٍ، ثم لم تلبث أن صارت هذه الحركة برنامجاً إصلاحياً تبنته الكنيسة لإصلاح أوضاعها وانتشالها من مستنقع الفساد التي كانت واقعة فيه.

التعساء الذين لن يتأخروا في استخدامه لشنق أنفسهم.

ولكي تتضح الصورة أكثر، لابد أن نسوق في هذا المقام التصور الذي يقدمه المؤرخ ستانللي لين – بأوول في كتابه "تاريخ المسلمين في الأندلس"، لأن فيه كثير من العظة لمن يريد أن يتعظ، وفيه ضوءٌ لمن أراد أن يعيش في النور، فيقول "إن أولئك الطغاة قصيري النظر الذين لم يكونوا يهتمون إلا بمصالحهم الشخصية وما يتصل بها من سلطة، وعلى استعداد دائم لتقديم العون والمساعدة لتوفير أي شئ من شأنه أن يُسهم في إضعاف خصومهم ومنافسيهم؛ فقد كانوا يجثون على رُكبهم عند قدمي ألفونس يستجدون مساندته متى وجدوا أنفسهم غير قادرين على مواجهة أي جار قوي من الإمارات الإسلامية الأخرى. وهكذا، وبسبب هذا الخنوع غير المحدود، صارت أغلب الإمارات والممالك وحكامها عبارة عن أتباع لملك قشتالة الذي استغل ذلك الوضع في زيادة الجزية التي كانوا يدفعونها له مقابل الحفاظ على صداقته. وبما أن شمال إسبانيا كان فقيراً، فإنه لمن السخرية أن يقوم ألفونس بالاعتماد على ما يصله من هبات أتباعه من أمراء الأندلس وعطاياهم السخية في تمويل الحرب التي سوف تؤدي إلى تدميرهم جميعاً."

وأخيراً، وبعد أن صار واضحاً لهم جميعاً أن ألفونس – بعد استيلائه على طليطلة سنة (١٠٨٥) – لن يرضى بشيء أقل من استرداد كل إسبانيا من أيدي المسلمين والقضاء عليهم كافة، هنالك فقط أفاق الملوك والأمراء العرب التعساء من غيبوبتهم وأدركوا مدى الخطر المحدق بهم، فبدأوا يفكرون جدياً في مواجهته. ولم يكن أمامهم آنذاك

من خيار سوى اللجوء إلى طلب العون من المرابطين في شمال إفريقيا. ولكنهم اختلفوا حتى في هذا الشأن؛ لأن فريقا منهم كان يرى في طلب المساعدة من المرابطين خطراً عليه. ولكن المعتمد – ملك اشبيلية – تدخل وأسكتهم بقولته الشهيرة – حتى ولو أنها جاءت بعد فوات الأوان – "أُفضّل أن أكون راعياً للإبل في صحارى إفريقيا، على أن أكون مربي خنازير في قشتالة"

"Better be a camel driver in African desert, than a swine herd in Castile."

وقدم يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين إلى إسبانيا وأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش الإسبانية المختلطة في معركة الزلاقة ١٠٨٦/١٠/٢٣م. وبسبب تجدد خطر الممالك النصرانية الإسبانية، وبسبب اتساع رقعة الخلاف بين أمراء وملوك الطوائف، عاد ابن تاشفين إلى الأندلس في عام (١٠٩٠) وشن حرباً على الطرفين، واستطاع استرجاع كافة الأراضي التي كان النصارى الإسبان قد انتزعوها من أيدي المسلمين ما عدا مدينة طليطلةToledo.

وفي سنة (١١٤٠) صارت مملكة أراغون الأقوى وذلك باتحادها مع كونتية برشلونة. وظلت الممالك النصرانية في إسبانيا تتحارب فيما بينها خلال القسم الأكبر من القرن الحادي عشر الأمر الذي أضعفها وأنهك قواها وجعل عملية ما يُعرف بحرب الاسترداد Reconquesta تتوقف مؤقتاً. ومع ذلك، لم يستفد الأمراء وملوك الطوائف من ذلك

الوضع. وفي سنة (١٢١٢) قام البابا أنوسنت الثالث بالدعوة إلى حملة صليبية بغرض طرد العرب المسلمين من إسبانيا وذلك بعد ما بذل كل ما في وسعه لتهدئة الأوضاع في إسبانيا والإصلاح بين الممالك المتحاربة. وفي معركة لاس ناس دي تولوسا Las Navas de Tolosa سنة (١٢١٢) تمكن الجيش الصليبي من إنزال هزيمة ساحقة بجيش الموحدين ومن كان معهم من قوات ملوك الطوائف. ومن أهم النتائج التي ترتبت على هذه المعركة : نهاية وجود الموحدين في إسبانيا ، ووقوع كل إسبانيا الإسلامية تحت سيطرة المنتصرين بقيادة اللفونسو الثامن وانحصار التواجد العربي الإسلامي في بقعة صغيرة في أقصى الجنوب هي مملكة غرناطة التي استمرت حتى سنة (١٤٩٢).

وفي يوم ٢ يناير من عام (١٤٩٢) سقطت غرناطة في أيدي الملوك الكاثوليك فرديناند وإيزابيلا وحل الصليب محل الهلال فوق البنايات العالية. وكان من ضمن شروط تسليم المدينة أن يستمر المسلمون في ممارسة شعائرهم الدينية في حرية تامة، وأن يحتفظوا بأملاكهم الخاصة. ولكن الملوك الكاثوليك ما لبثوا أن نقضوا عهدهم ولم يحترموا تلك الشروط التي تم بموجبها تسليم المدينة، وانطلقت تبعاً لذلك حملة التنصير الإجباري في سنة (١٤٩٩) بقيادة الكاهن الخاص بالملكة إيزابيلا. وكان أول عمل قام به هذا الكاردينال هو سحب الكتب والمخطوطات العربية التي لها صلة بالإسلام من المكتبات والأسواق ثم حرقها في وسط المدينة. ثم أُنشئت بعد ذلك، محاكم التفتيش وباشرت أعمالها الاضطهادية والتعسفية؛ ففي سنة (١٥٠٢) مُنح مسلمو غرناطة

خيارين إما اعتناق النصرانية أو النفي الأمر الذي أدي إلى اعتناق كثيرين منهم النصرانية في الظاهر، بينما ظلوا يمارسون طقوسهم وشعائرهم الإسلامية في الخفاء. وعلى سبيل المثال، كان بعضهم يعود إلى البيت بعد عقد زواج نصراني (أي في الكنيسة) ليعيد الزواج على الطريقة الإسلامية، ومنهم من كان يستخدم اسماً نصرانياً في العلنّ وآخر عربي للاستخدام الخاص.

ومنذ سنة (١٥٠١) صدر مرسوم ملكي يقضي بأن على كل المسلمين في قشتالة وليون إما الارتداد عن دينهم أو مغادرة إسبانيا. وفي سنة (١٥٢٦) واجه مسلمو أراغون وڤالنسيا الخيارات نفسها، فضلاً عن أنه ومنذ ذلك التاريخ صار الإسلام محرماً في إسبانيا بصفة رسمية. وفي سنة (١٥٦٦) أصدر الملك فيليب الثاني مرسوماً يفرض على من تبقي من المسلمين التخلي الفوري عن استخدام لغتهم العربية، ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية، والتخلي عن مؤسساتهم وعن طريقة معيشتهم ومنعهم من ارتداء ملابسهم التقليدية. وذهب إلى حد أنه أمر بهدم الحمامات الإسبانيةSpanish baths باعتبار أنها ترمز إلى وجود "الكفار". ولكن أمر الطرد الجماعي وقعّه الملك فيليب الثالث في ٢٢ سبتمبر (١٦٠٩) الذي أدي إلى إكراه المسلمين على مغادرة إسبانيا. ويقال أن حوالي نصف مليون تم تهجيرهم وتوطينهم في ساحل الشمال الإفريقي، ولكن منهم من ركب البحر إلى مناطق إسلامية أكثر بعداً، مثل سالونيك في منطقة البلقان. ويقدّر عدد المسلمين الذين تعرضوا إما للإبعاد أو القتل"Who were banished or executed" في الفترة الواقعة بين سقوط

غرناطة والعقد الأول من القرن السابع عشر بحوالي ثلاثة ملايين نسمة.

وهكذا، يقول المؤرخ ستانللي لين – پوول : فإن مشكلة المسلمين في إسبانيا قد انتهت وإلى الأبد، ولكن باستثناء واحد لهذه القاعدة؛ وهو أنه أين ما زُرعت بذور الحضارة العربية الإسلامية، فإن نبتتها ظلت قائمة بشكل دائم. لقد تم التخلص من المسلمين، ولفترة وجيزة سطعت إسبانيا النصرانية – مثلما يسطع القمر – عن طريق ضوء مستعار؛ ثم جاء بعد ذلك الكسوف. ومنذ ذلك الحين وإسبانيا تحبو في قبو من الظلام الحالك."

الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية و الدينية في الغرب في القرن الحادي عشر:

كانت أوروبا – وبخاصة فرنسا – مازالت ترزح تحت نير النظام الإقطاعي وما نتج عن وجوده من مشاكل سياسية، واقتصادية، واجتماعية بصفة عامة، على الرغم من أنه كان الحل الأمثل بالنسبة لفرنسا منذ أواخر القرن التاسع التي تُعد مهد هذا النظام كما هي مهد الحركة الصليبية. فقد انهارت السلطة المركزية في فرنسا من جراء غزوات الشماليين The Vikings الخاطفة والمدمرة، فانتقلت السلطة ومهمة الدفاع عن الأراضي الفرنسية إلى الأمراء والسادة المحليين، فكان ذلك سبباً رئيساً في ظهور النظام الإقطاعي بمؤسساته مثل التبعية Vassalage والفروسية Knighthood، والقِنانة[1] Serfdom. ومع ذلك فإذا كان الفضل في الحفاظ على الأراضي الفرنسية من

1-[1] القِنانة : Serfdom تعني عبودية الأرض.

الناحية السياسية يرجع – إلى حد كبير – للنظام الإقطاعي وذلك عن طريق تصدي الأمراء والسادة الإقطاعيين لغزوات الشماليين وهزيمتهم في آخر الأمر، فإن السلبيات التي كانت قائمة في أواخر القرن الحادي عشر متعددة ولها صلة مباشرة بهذا النظام: إذ كانت فرنسا وقتها تتألف سياسياً من عدد من الممالك الإقطاعية، فضلاً عما رافق ذلك من مشاكل كثيرة ناجمة عن نظام التبعية، ونظام الوراثة، والحروب الخاصة بين السادة الإقطاعية التي لا تكاد تنقطع، واللصوصية وقطع الطرق.

وأما من الناحية الاجتماعية فقد بدأت أوربا تشعر بالزيادة في عدد السكان خلال القرن الحادي عشر، وبسبب نظام الوراثة الذي كان متبعاً وقتذاك والقائم على قاعدة توريث الابن الأكبر[1]، فإن صغار النبلاء الذين لا يحالفهم الحظ بالزواج من وريثة ثرية أولا ينضمون إلى أحد الأديرة، يُصبحون عناصر متربصة وعلى أُهبة الاستعداد للمشاركة في مغامرة محلية أو خارجية تحقق لهم مكاسب مادية وتعوضهم عما فقدوه في موطنهم الأصلي؛ ووجد هؤلاء الفرصة في قيام الحركة الصليبية.

وأما الفارس فهو محارب بطبعه – أي مهنته القتال –والفارس الذي لا يكون مُنضوياً تحت لواء جيش سيد إقطاعي يُعد عاطلاً عن العمل. واشترك هؤلاء في الحرب الصليبية لأسباب عدة أهمها: إظهار مواهبهم القتالية، وإشباع رغباتهم في ممارسة الحرب، فضلاً عن إشباع

[1] - أي أن الابن الأكبر يرث عن والده كل شئ دون بقية الأبناء.

الجانب الروحي عندهم ، وهو ما أوحت به الكنيسة إليهم والمتمثل في محو الآثام وغفران الذنوب "والحصول على الشهادة" ، باعتبارهم يقاتلون باسم الدين ولتحقيق هدف مقدس.

وأما عامة الناس – وبخاصة الفلاحين والأقنان – فقد كانوا يعانون من سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشونها في ظل النظام الإقطاعي. لذلك وجد هؤلاء في الحركة الصليبية منفذاً من تلك الأوضاع المزرية والمهينة.

وأما اقتصادياً ، فقد طرأ على أوروبا في القرن الحادي عشر انتعاش اقتصادي سبق قيام الدعوة للحركة الصليبية؛ فقد تم قطع الغابات واستصلاح أراضيها ، واتسعت الحدود الإقليمية وازدهرت الأسواق، ونمت تجارة المدن؛ وفي المقابل انحسرت السيادة الإسلامية عن البحر المتوسط بسبب الضعف العام والانقسامات السياسية التي كان يعاني منها العالم الإسلامي بصفة عامة، والدولة الفاطمية في مصر بشكل خاص، فضلاً عن دخول عنصر جديد ميدان المنافسة البحرية والمتمثل في المدن الإيطالية بيزا ، وجنوا ، والبندقية. وهكذا كان الجميع: تجاراً ونبلاء وفلاحين وغيرهم يبحثون عن مخرج عندما قامت الدعوة للحركة الصليبية.

وأما دينياً ، فقد شهد النصف الثاني من القرن الحادي عشر بلوغ حركة الإحياء الديني ذروتها على يد عدد من البابوات الإصلاحيين المتشددين بدءاً بالبابا ليو التاسع (١٠٤٩- ١٠٥٤)، ومروراً بالبابا غريغوري السابع (١٠٧٣- ١٠٨٥)، وختاماً بالبابا أوربان الثاني

(١٠٨٨- ١٠٩٩)، الأمر الذي مكّن البابوية من أن تلعب الدور الرئيس في السيطرة على عقول الجماهير وتوجيهها؛ تلك الجماهير البسيطة والساذجة التفكير التي انتشر في وسطها الإيمان بالخرافات التي اقترنت بفكرة "الحرب المقدسة" والتي عملت الكنيسة على تغذيتها واستمرارها؛ فقد ساد الاعتقاد بين أولئك البسطاء – آنذاك – أن العالم قادم على نهايته خلال ذلك القرن، وأن أحد أحفاد شارلمان ملك الفرنجة سوف يقود "المؤمنين" من النصارى إلى بيت المقدس في انتظار عودة السيد المسيح، حيث تمثل بيت المقدس عند هؤلاء الرمز الأرضي للمدينة الفاضلة أو "المدينة المقدسة the Heavenly City" أو"مدينة السماء".

أضف إلى ذلك كله، نشاط حركة السلام – التي ظهرت في فرنسا منذ أواخر القرن العاشر – في تطبيق سلام الله Peace of God، وهدنة الله Truce of God، وهي اتفاقات تمت برعاية الكنيسة تهدف إلى احتواء الحروب الإقطاعية الخاصة، ومنع الاعتداء على رجال الدين وكنائسهم، وتوفير الحماية للمسافرين وكل من يعتقدون أنه في حاجة إلى حماية، والتي تبلورت منها فكرة تقديم المساعدة للنصارى الذين يطلبونها أينما كانوا.

إذن، كانت أوروبا في أواخر القرن الحادي عشر تزخر بالإمكانات المادية، وتمتلك من القوة – على الرغم من عدم اتحادها – ما مكّنها من شن حرب "مقدسة" تحت رعاية الكنيسة – التي كانت اللاعب الأساسي في هذا الشأن – لمساعدة الدولة البيزنطية في مواجهة المسلمين السلاجقة – وهو الهدف المُعلن –، والوقوف إلى جانب "إخوانهم

النصارى" في المشرق، وإعانتهم على إزاحة ما كانوا يتعرضون له من ظلم مزعوم، وما يعانونه من اضطهاد – لا وجود له– ولكن الحقيقة كانت استغلال الدين من قبل الكنيسة ورجالاتها، واستخدامه كواجهة لتحقيق مكاسب وأهداف استراتيجية بعيدة المدى يأتي في مقدمتها:

١- نشر النصرانية والعمل على تنصير المشرق العربي.

٢- العمل على تحقيق اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية وسيادة الكاثوليكية.

انتزاع الأرض المقدسة من أيدي المسلمين ومحاولة القضاء عليهم جنساً ودياناً، وهو ما بدا واضحاً من المذابح المروعة التي ارتكبها الصليبيون في حق سكان مدينة القدس العزّل، وما قامت به المملكة الصليبية فيما بعد من محاولات تستهدف تهجير ما بقي فيها من العرب والمسلمين.

أوضاع المشرق العربي في أواخر القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر:

تفككت الدولة السلجوقية عقب وفاة السلطان ملك شاه سنة (١٠٩٢)، وتقطعت أوصالها، وتقاسم التركة أولاده وأخوه تُتُش Tutush، وقامت على أنقاضها عدد من الممالك أو السلطنات المتناحرة فيما بينها. وهكذا انتهت الإمبراطورية السلجوقية وتنفس كل من الفاطميين في مصر والبيزنطيين في القسطنطينية الصعداء. ومع أنها كانت ما تزال تشكل خطراً على أي دخيل في المنطقة فإن استمرار النزاع فيما بين هذه الإمارات والحروب التي لا طائل من ورائها أدّيا إلى

ضعفها، وإلى انتشار الفوضى السياسية الإقطاعية وإلى ضياع معظم آسيا الصغرى الإسلامية في نهاية الأمر؛ لأنه في هذه الآونة بالذات ظهر الصليبيون في المشرق العربي. ومع نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر كانت معظم الممالك الإسلامية في آسيا الصغرى تُحكم من قبل أمراء الأتراك السلاجقة.

فانفرد بركياروقBarkiyaroq– الابن الأكبر لملك شاه – بحكم أكبر الممالك السلجوقية التي شملت بلاد فارس وبغداد، مركز الخلافة العباسية، في حين حكم مملكة الموصل– وهي مقاطعة تابعة لفارس– نائبٌ عنه عُرف بطموحه وشدة بأسه هو كربوغاKerbogha.

وأما ممالك الشام دمشق وحلب فقد حكمها أبناء تُتُش دقاقDuqaq ورضوان Ridwan وكانا على خلاف دائم ونزاع مستمر بسبب رغبة كل منهما في الاستيلاء على ملك الآخر.

وأما في آسيا الصغرى فقد تأسست مملكة هناك عُرفت بسلطنة سلاجقة الروم أسسها قليج أرسلان KilijArslanوهو ابن عم بركياروق.

وأما أرمينيا الشرقية فوقعت تحت حكم الأراتقة أو (بنو الأرتق) Ortoqid وهم يتبعون السلاجقة وكانوا يحكمون في فلسطين قبل أن يطردهم منها الوزير الفاطمي الأفضل al-Afdel.

وأخيراً، وفي أقصى الشمال على شواطئ البحر الأسود فيما كان يُعرف بكابادوكيا أو(قبادوقية) Cappadocia، كانت تحكم أسرة الدانشمندDanishmend التي يعود أصلها إلى قبائل التركمان

الذين لم يتمكن السلاجقة من إخضاعهم وكانوا ينازعونهم السلطة والأرض في آسيا الصغرى وأرمينيا.

وأما على الساحل السوري فقد خضعت معظم مدنه الكبرى لحكم الأمراء المسلمين الذين كانوا يتبعون الدولة الفاطمية تبعية إسمية أمثال: بنو عمار في طرابلس، وبنو منقذ في شيزر. إضافة إلى الأراضي الأرمنية الواقعة بين أعالي الفرات وهضبة الأناضول.

إذن، فخلاصة القول: كان المشرق العربي في نهاية القرن الحادي عشر وبداية الثاني عشر يعيش حالة من التمزق السياسي، والانقسامات، والحروب البينية والضعف العام. أضف إلى ذلك ما كان سائداً في سوريا وفلسطين – على وجه الخصوص– من خلافات دينية تمثلت في النعرات المذهبية التي شتتت الأمة وفرقتها والقائمة على المذهبين الشيعي والسنّي؛ وقد لعبت الطائفة الإسماعيلية الشيعية دوراً تخريبياً لا مثيل له في هذا الشأن.

وفي هذه الأثناء وصلت جحافل الصليبيين إلى مشارف بلاد الشام؛ وفي غضون سنتين أحرزت عدة انتصارات سريعة وتمكنت في الفترة ما بين مايو (١٠٩٧) ويوليو(١٠٩٩) من تأسيس إمارة الرها في أعالي الفرات في مارس (١٠٩٨)، وإمارة أنطاكية في يونيو (١٠٩٨)، ثم لم يلبثوا أن استولوا على مدينة القدس في يوليو (١٠٩٩) وأقاموا فيها مملكة صليبية.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي هل امتلك الصليبيون من الصفات ما افتقر إليها أهل البلاد؟ كلا. فالصليبيون كانوا بشراً أدني

من سواهم ثقافة وحضارة، ومعرفة بفنون القتال، فضلاً عن تعدد قيادات جيوشهم واختلاف توجهاتهم واهدافهم. ولقد انتصروا لا لأنهم تمتعوا بصفات التفوق الطبيعي، بل لأنهم واجهوا خصماً كان على درجة كبيرة جداً من التفكك والانقسام والضعف، ومن ثم فإن وجودهم في المشرق لم يكن مرتبطاً بقوتهم ولكن بضعف العرب وتمزق قواهم واختلاف كلمتهم.

ويشبّه أحد المؤرخين الإمارات الصليبية "بجزر متعزلة وسط محيط إسلامي مترامي الأطراف، الأمر الذي يجعلنا نقرر أن احتفاظ الصليبين بكياناتهم في تلك الظروف لم يكن مردّه إلى قوتهم، بقدر ما يرجع إلى ضعف القوى الإسلامية في المشرق وتفككها وانقسامها على نفسها."

مقدمات الحروب الصليبية :

قام الأتراك السلاجقة بعد انتصارهم الساحق على القوات البيزنطية في موقعة مانزيكرت سنة(١٠٧١) بتأسيس سلطنة عُرفت في آسيا الصغرى باسم سلطنة الروم Sultanate Of Rum او سلطنة قونيةIconium وواصلوا تقدمهم بنجاح في الاتجاهات كلها. وقد كان لتلك الانتصارات صدىً كبيراً في مدينة القدس؛ ذلك أن أحد الجنرالات الأتراك زحف على فلسطين في سنة (١٠٧٠) واستولى على القدس، ولكن المدينة لم تلبث أن ثارت ضده الأمر الذي دفعه إلي حصارها من جديد، حيث عانت هذه المرة بعد سقوطها في يده من السلب والنهب. ثم فتح السلاجقة أنطاكية في سوريا ومكنوا لأنفسهم في مدن نيقيا

Nicaea، وكيزيكوس Cyzicus، وسمرنا Smyma في آسيا الصغرى، واحتلوا جزر خيوس Chios، وليسبوس Lesbos، وساموس Samos، ورودس Rhodes في بحر إيجة. وقد أثر كل ذلك على أوضاع الحجيج الأوروبي سواء في مدينة القدس أو في الأماكن الأخرى.

وعلى الرغم – يقول بازيليف– من أن الاضطهادات والإهانات التي تعرض لها النصارى والتي ينسبها كثير من المؤرخين للسلاجقة مبالغ فيها، فإنه من الصعب قبول رأي المؤرخ رامزي[1] W.Ramsay فيما يتعلق بالاعتدال واللين الذي أبداه السلاجقة تجاه رعاياهم من النصارى: "لقد حكم سلاطين السلاجقة رعاياهم من النصارى بطريقة فيها كثيرمن الرفق والتسامح إلى حد أن المؤرخين البيزنطيين المتعصبين يرمون بتلميحات هنا وهناك تتعلق بأن النصارى كانوا في كثير من الأحيان يفضّلون حكم السلاطين علي حكم الأباطرة لقد كان النصارى تحت حكم السلاجقة أكثر سعادة من أولئك الذين يعيشون في قلب الإمبراطورية البيزنطية، وأما الأكثر تعاسة فهي تلك الأراضي الواقعة على الحدود البيزنطية والتي كانت عرضة للغارات المستمرة. وأما فيما يخص الاضطهاد الديني فلا يوجد أثراً له خلال فترة حكم السلاجقة."

تعقيب:

---

[1]- W.Ramsay , "The War of Moslems and Christians for The Possession of Palestine, XC (1906), 1-15. Qoated in Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol - ٢,P.394

ينقسم المؤرخون المتحاملون على الإسلام والمسلمين إلى فئتين: الأولى حاقدة وتعصبها أعمى في أغلب الأحيان ويأتي على رأسها إدوارد چيبون Edward Cibbon، على الرغم من عدم إلمامه باللغة العربية، وأما الفئة الثانية – والتي ينتمي إليها ازيلي فتحاول أن تكون متوازنة – قدر المستطاع – حين عرضها للأحداث، ولكنها لا تلبث أن تُظهر تحيّزها. فعلى سبيل المثال، على الرغم من عدم قيامه بنعت المسلمين بصفات مثل "الكفرة"، و"البرابرة" – كما يفعل مؤرخوا الفئة الأولى فإنه يورد الكثير منها على لسان الآخرين في شكل الاستدلال بها. وعلى الرغم من رفض ازيلي ومن هم على شاكلته، لوجهة نظر رامسي Ramsay، فإن ثمة مصادر أخرى تؤيدها وتؤكدها؛ إذ يقول رانسيمان[1] "وعلى الرغم من تعرض الحجيج القادم من الغرب إلى بعض المتاعب النادرة، فإن القرن الحادي عشر وحتى آخر عقدين فيه تميّز باستمرار تدفقهم إلى الشرق، وكانوا يأتون في قوافل وجماعات من الرجال والنساء من كل الأعمار ومن كل الطبقات تبلغ الآلاف، وقد تهيئوا في عصر اشتهر بالفراغ لقضاء عام أو أكثر في تلك الرحلة. ويبدو أن تُتُش[2] ونائبه أرتق حاكم القدس أقاما في سنة (١٠٧٩) حكومة منظمة، فلم تكن ثمة عداوة ضد النصارى خاصة، الأمر الذي جعل

---

[1]- ستيفن رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية – من كلير مونت إلى القدس – ترجمة نور الدين خليل، الطبعة الثانية (الإسكندرية، ١٩٩٨)، ص ٩٩-١٠٠. ويُعد رانسيمان من مؤرخي الحروب الصليبية المرموقين والمنصفين إلى حدٍ كبير، تعرض إلى كثير من اللوم من بني جلدته بسبب قوله كلمة الحق.

[2]- تُتُش هو شقيق السلطان السلجوقي ملكشاه الذي كان يحكم بلاد الشام نيابة عن السلطان وتدخل مدينة القدس من ضمن ممتلكاته.

حياتهم في القدس لم تتأثر إلا قليلاً. وكانت فلسطين هادئة دائماً باستثناء الفترة التي شهدت الحرب بين السلاجقة والفاطميين هناك."

ويستشهد ازيليي بهدم كنيسة القيامة، وهي حادثة وقعت في سنة (١٠٠٩) أثناء فترة حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي، وقد تمّت الإشارة إليها كما أن السلاجقة لا تربطهم صلة بها. وأما الدليل الآخر الذي يسوقه ازيليي وآخرون هو استيلاء السلاجقة على مدينة القدس في العقد الثامن من القرن الحادي عشر (١٠٧٩). وقد تمت الإشارة أيضاً إلى ما كان سائداً المدينة المقدسة وأهلها من طمأنينة وأمان حتى وصول الصليبيين إلى فلسطين. ذلك أنه ينسب ما تعرض النصارى له من متاعب – كما يدعى – في تلك الآونة، إلي التأثير العميق الذي أحدثته تلك المصاعب في عقول الجماعات المتدينة في أوروبا الغربية، وأثارت عاطفة قوية من التعصب الديني. بالإضافة إلى ذلك، فإن كثيراً من الأوروبيين أدركوا لو أن بيزنطة وقعت تحت ضغط السلاجقة، فإن ذلك سيعرّض الغرب النصراني بأكمله إلى خطر جسيم. ويسوق في هذا الشأن رأي المؤرخ الفرنسي ل – هالفين[1] "L.Halphen" بعد عدة قرون من الرعب والدمار، هل سيخضع البحر المتوسط مرة أخرى لهجمات البرابرة؟ كان هذا هو السؤال الذي تم طرحه حوالي سنة (١٠٧٥) والناجم عن المتاعب التي كانت سائدة. ومن ثم عملت أوروبا الغربية على إعادة تنظيم نفسها

---

[1]- L.Halphen, Les Barbares: de grandes invasions aux conquêtes turques du x1e siècle, 387.

خلال القرن الحادي عشر آخذة على عاتقها مهمة الرّد على ذلك: فقد جاء الرد على الهجمات السلجوقية بالجملة عن طريق قيام حملة صليبية."

ولكن الخطر الأكبر الناجم عن قوة الأتراك السلاجقة الآخذة في النمو شعر به الأباطرة البيزنطيون الذين لم يعدُ باستطاعتهم مقاومة تقدم السلاجقة والتصدي لهم بمفردهم وذلك بعد الهزيمة التي تعرضت لها الجيوش البيزنطية في معركة مانزيكرت. ومن ثم اتجهوا بأنظارهم إلى الغرب – وعلى وجه الخصوص – إلى البابا الذي بوصفه الرئيس الروحي لأوروبا الغربية يمكنه من خلال تأثيره حث شعوبها على تقديم المساعدة اللازمة لبيزنطة. وكما يتضح من رسالة أليكسوس كومينيوس التي بعث بها إلى روبرت أوفلاندرز Robert of Flanders، يبدو أن أباطرة آخرون قاموا في بعض الأحيان بمناشدة حكام من الغرب بشكل مباشر. ولكن كل ما كان يفكر أليكسوس فيه هو فرق من المرتزقة مدفوعة الأجر تأتمر بأمره، وليس جيوشاً قوية ومنظمة بشكل جيد.

من أهداف البابوية:

ولقد استجاب البابا وات بشكل إيجابي لمناشدات الأباطرة الشرقيين. وبالإضافة إلى الجانب المثالي البحت للقضية – المتمثل في تقديم المساعدة للبيزنطيين والتي تعد في الوقت ذاته مساعدة للعالم النصراني بأكمله، وتحرير الأرض المقدسة – فإن البابا وات كانوا من الطبيعي يهدفون إلى تحقيق مصالح الكنيسة الكاثوليكية؛ ذلك أنه في حال نجاح هذا المشروع فإنهم يأملون في زيادة تأثيرهم ونفوذهم

بشكل أكبر، ويصير باستطاعتهم إعادة الكنيسة الشرقية إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية. لأنه لم يكن في إمكانهم نسيان ما حدث من تصدع بينهما في سنة (١٠٥٤). ولم تلبث أن تطورت تدريجياً فكرة الأباطرة البيزنطيين الأصلية المتعلقة بالحصول على مساعدات في هيئة فرق من المرتزقة من الغرب – وبخاصة تحت تأثير مناشدات البابوية – إلى فكرة الحرب الصليبية، أو ما يمكن تسميته إلى فكرة حركة شعبية قامت بها جماهير أوروبا الغربية تحت قيادة أو توجيه حكامهما وأشهر القيادات العسكرية آنذاك.

ذلك أنه منذ أواخر النصف الثاني من القرن التاسع يرى بعض المؤرخين أن الفكرة الأولى للحرب الصليبية وكذلك الدعوة الأولى لها تم التعبير عنها قبل نهاية القرن العاشر عن طريق رجل الدين جيربيرت Gerbert، الذي صار فيما بعد البابا سيلڤستر الثاني Sylvester II. ومن بين رسائله التي كان قد بعث بها رسالة "من كنيسة القدس المدمرة إلى الكنيسة العالمية "From the ruined Church of Jerusalern to the Church Universal حيث تناشد كنيسة القدس في هذه الرسالة الكنيسة العالمية وتطلب منها المساعدة. وينظر المختصون في قضية جيربيرت إلى هذه الرسالة على أنها عمل أصلي كتبها جيربيرت قبل أن يصبح بابا، ولكنهم لا يرون فيها أي مشروع صليبي، بل هي مجرد رسالة عادية مرسلة إلى "المؤمنين من النصارى" تطلب منهم إرسال الحسنات لدعم المؤسسات النصرانية في مدينة

القدس.[1] على أن وضع النصارى في فلسطين مع نهاية القرن العاشر لم يكن من السوء إلى درجة تتطلب الدعوة لقيام حركة صليبية.

وقبل وصول آل كومنين إلى العرش، وبسبب ضغط السلاجقة وخطر قبائل البشناق Pastzinak على الإمبراطورية، قام الإمبراطور ميخائيل السابع دوكاس Michael VII Ducas بإرسال رسالة إلى البابا غريغوري السابع Gregory يستجديه المساعدة مقابل وعده باتحاد الكنيستين. وأيضاً كتب البابا عدة رسائل حضّ فيها كل من خاطبه بدعم الإمبراطورية التي هي على مشارف الهلاك على حد قوله. فعلى سبيل المثال، كتب في رسالته الموجهة إلى دوق برغندي Duk of Burgundy يقول "نأمل بأننا، وذلك بعد قهر النورمنديين، سوف ننتقل إلى القسطنطينية لمساعدة النصارى، الذين أقلقت مضاجعهم وأرهقتهم الهجمات المتكررة للشرقيين (المسلمين) Saracens، نناشدكم ونحن في غاية القلق بأن تقوم جميعاً بمد يد العون لهم." وفي رسالة أخرى، تحدث غريغوري عن "المصير المثير للشفقة للإمبراطورية العظيمة." وفي رسالة موجهة للعاهل الألماني هنري الرابع كتب البابا يقول "لقد تم القضاء على أغلب النصارى المقيمين وراء البحر بواسطة الوثنيين Pagans من خلال هزيمة ساحقة، ومثلهم مثل الماشية، يتم ذبحهم كل

---

[1]- T.Havet, Lettres de Gerbert (983-97), 22 and n.3.N. Bubnov, The Collection of Gerbert's Letters as a Historical Source, II,230 and n. 137.see also H.Sybel Geschichte des ersten Kreuzzuges (2nd ed., 1881), 458-59.in A.A.Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol.2, The University of Wisconsin Press,(1976) P395

يوم، وأن الجنس النصراني تتم إبادته"، إنهم يتوسلون بتواضع للحصول على المساعدة لكي "لا يتم القضاء على الديانة النصرانية في عهدنا، لا سامح الله"؛ وقد تبع مناشدات البابا المتكررة قيام الإيطاليين وآخرون غيرهم من الأوروبيين (Ultramontani) بتجهيز جيش فاق تعداده خمسون ألف وفي نيتهم – إن كان ذلك مكناً – وضع البابا على رأسه لقيادته للوقوف في وجه أعداء الرب والوصول إلى القبر المقدس.

and Planning , if Possible, to establish the Pop at the head of the expedition; they are willing to rise against the enemies of God and to reach the Holy Sepulchre.

" أنا على استعداد للقيام بذلك عن قناعة" استمر البابا قائلاً "لأن كنيسة القسطنطينية – والتي لا تتفق معنا فيما يتعلق بقضية الروح القدس[1]- ترغب في الوصول إلي اتفاق مع الكرسي الرسولي Apostolic Throne."[2]

من الواضح أن القضية التي تناولتها تلك الرسائل لا تقتصر على إعداد حملة صليبية لتحرير الأرض المقدسة وحسب، ولكن يبدو، أن غريغوري السابع كان أيضاً يخطط لحملة إلى القسطنطينية وذلك من أجل إنقاذ بيزنطة، المدافع الرئيس عن النصرانية في الشرق. وهكذا، يبدو – كما يقول ازيليي – "أن الحركة التي أحدثها غريغوري السابع

---

[1]- الاختلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية بخصوص انبثاق الروح القدس. ذلك أنه تم الاتفاق حول قانون الإيمان المسيحي في المؤتمر الديني المنعقد بالقسطنطينية في سنة (٣٨١)، والتي تنص إحدى بنوده على أن روح القدس ينبثق من الأب وهو مقدس ويجب أن يمجّد ويُعبد مثله في ذلك مثل الأب والابن. ولكن كنيسة روما أدخلت على هذه الفقرة . . . ومن الابن، وعملت بها منذ حوالي القرن الحادي عشر.

[2]- J.P.Migne, Patrologia Latina, CXL VIII,326. Vasiliev, 396

في أوروبا لم تلبث أن انتشرت بشكل واسع في الغرب، ويرجع الفضل في ذلك إلى ما تحلي به البابا أوربان الثاني من نشاط وثقة بالنفس؛ ذلك أن فكرة تزويد أليكسيوس بفرق من المرتزقة تم نسيانها، وصار الأمر يتعلق بحركة شعبية جماهيرية."

إن أول دراسة تتميز بالنقد قام بها مؤرخ ألماني هو . سايبل[1] H.Sybel ونشرت للمرة الأولى سنة (١٨٤١)، يقدم لنا فيها الأسباب التالية لقيام الحملات الصليبية وذلك حسب وجهة النظر الغربية:

١- يتعلق الأول بالروح الدينية العامة التي سادت العصور الوسطي والتي زادت قوتها في القرن الحادي عشر بفضل الحركة الكلونية. ذلك أنه في مجتمع يسود فيه الشعور بإدراك الخطايا والاعتراف بها لابد أن تسوده نزعة إلى التقشف، وإلى الانعزال، وإلى القيام بأعمال روحية جليلة، وكذلك إلى الحج؛ وقد تأثرت الدراسات اللاهوتية والفلسفية في ذلك الوقت بشكل عميق بالمؤثرات نفسها. ذلك أن هذه الروح تُعد السبب العام الأول الذي أثار الجماهير الشعبية ودفعها إلى مأثرة تحرير القبر المقدس.

٢- وأما الثاني فيتعلق بما طرأ على البابوية من نمو في القرن الحادي عشر، وبخاصة تحت قيادة غريغوري السابع؛ إذ بدت الحملات الصليبية أمراً مرغوب فيه عند الباباوات، لأنها ستفتح آفاقاً واسعة أمام المزيد من

---

[1]- H.Sybel, Geschichte des ersten Kreuzzges (2nd ed.,1881) Vasiliev, 397

التطور لقوة المؤسسة البابوية وسلطانها؛ ذلك أنه إذا ما نجح البابا وات في مغامرتهم التي سيصبحون هم منشؤها ومرشدوها الروحيون، فإن ذلك سيسمح لهم ببسط سلطتهم وسلطانهم على كثير من البلدان، وفي الوقت ذاته سيمكنهم ذلك من إرجاع كنيسة القسطنطينية المنشقة إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية. ومن ثم، فإن رغبتهم المثالية في مد يد العون للنصارى الشرقيين وانتزاع الأرض المقدسة امتزجت مع رغبتهم في زيادة قوتهم وسلطتهم.

٣- وأما الثالث فيتعلق بالدوافع المادية والدنيوية التي كان لها دور كبير في تحريك مختلف الطبقات الاجتماعية. وعلى الرغم من اشتراكهم في الشعور الديني العام، فإن النبلاء الإقطاعيين، والبارونات، والفرسان كانت تغمرهم روح المغامرة وشغف القتال. ومن ثم، فإن حملة ضد الشرق هيأت لهم فرصة لا يمكن تفويتها من أجل إرضاء طموحاتهم وإشباع ميولهم القتالية، وفي الوقت ذاته زيادة مواردهم المالية. وأما فيما يتعلق بالطبقات الدنيا، فإن الفلاحين مطحونين بسبب ما يعانونه من أعباء الاستبداد الإقطاعي ومدفوعين بقوة الشعور الديني البدائي، رأوا في الحرب الصليبية خلاص ولو مؤقت من الظلم الإقطاعي، وتأخيراً لدفع ديونهم، ونوعاً من الأمن لعائلاتهم ومواشيهم المتواضعة، وتحرراً من خطاياهم.

شهد القرن الحادي عشر أعداداً متزايدة في حجم الحجيج القادمين من الغرب إلى الأرض المقدسة بفلسطين سواء اكانوا في هيئة جماعات أو فرادي أو في شكل حملات اعتباراً من سنة (١٠٢٦/١٠٢٧)،

و(١٠٣٣)، ولكن أكبر هذه الجماعات عدداً وقع في سنة (١٠٦٤/٦٥)، حيث تجاوز عدد الحجاج في تلك السنة السبعة آلاف.

وبهذا الصدد، أي فيما يتعلق بتدفق الحجيج المسالم على فلسطين في الفترة التي سبقت الحروب الصليبية، برز السؤال الذي مفاده هل يمكن النظر إلى القرن الحادي عشر واعتباره فترة انتقال من الحج السلمي إلى عصر الحملات الصليبية المسلحة؟ ثمة من يدّعي بأنه بسبب الأوضاع التي جدّت على فلسطين بعد استيلاء السلاجقة عليها بدأت جماعات الحجاج تسافر حاملة اسلحتها من أجل الدفاع عن نفسها ضد أي هجمات محتملة. إن حمل الحجاج القادمين من الغرب للسلاح بعد عام (١٠٦٥) صار مألوفاً إلى حدٍ ما، ولكن ليس بسبب ما كان يجري في فلسطين، وإنما بسبب صعوبة السفر في الأراضي السورية الناتج عن تعرض الحجاج- بين الحين والآخر -إلى متاعب جراء الحرب التي كانت دائرة بين البيزنطيين والسلاجقة وبينهم وبين الفاطميين. كما أنه ليس ثمة ما يشير إلى تعرض أفواج الحجيج القادمين إلى فلسطين لأي أذىً بشكل منظم من أي جهة رسمية.

وتشير المصادر إلى أن الفرسان الذين قدموا إلى فلسطين برفقة الحجاج الغربيين كان لهم دوراً كبيراً في تاريخ أصل الحملات الصليبية عن طريق ما كانوا ينقلونه من أخبار فيها كثير من المبالغة لإخوانهم في أوروبا عن الوضع في الأرض المقدسة الأمر الذي يؤدي إلى إيقاظ الشعور بالحفاظ على اهتمام دائم بفلسطين!

ثمة عنصر آخر في تاريخ أوروبا الغربية له علاقة بأصول الحروب الصليبية وهو الزيادة في عدد السكان في بعض الدول، والذي بدأ حوالي عام (١٠٠٠). ومن المعروف بشكل مؤكد أن عدد السكان ارتفع في كل من فرنسا وفلاندرز. إن أحد مظاهر الحركة الشعبية مع نهاية القرن الحادي عشر كانت ظاهرة التوسع الاستعماري للعصر الوسيط التي تميّزت بها بعض الدول الأوروبية وعلى وجه الخصوص فرنسا. ذلك أن القرن الحادي عشر في فرنسا كان وقتاً تعرضت البلاد فيه إلى مجاعات وحالات من الجفاف المتكرر وحالات من الأوبئة العنيفة وفصول الشتاء القاسية. وقد دفعت تلك الأوضاع المعيشية الصعبة بالسكان إلى التفكير في الحصول على أراضٍ بعيدة مزدهرة تفيض بالخيرات. ومن ثم، آخذين كل ذلك في الحسبان، فإنه من الممكن الاستنتاج بأنه مع اقتراب نهاية القرن الحادي عشر، كانت أوروبا مستعدة عقلياً واقتصادياً للقيام بمشروع صليبي على نطاق واسع.

ماهية الحروب الصليبية

هي سلسلة من الحملات العسكرية نظمتها القوى النصرانية في أوروبا الغربية ضد القوى الإسلامية، والتي استطاعت – مع نهاية القرن الحادي عشر – الحصول على موطئ قدم في الأراضي المقدسة التي تتبع تقليديا للنصارى من الناحية الشكلية.

واستخدم مصطلح صليبية أو حملة صليبية Crusade بصفة عامة للدلالة على الحملات العسكرية التي نظمها نصارى الغرب ضد القوى الإسلامية من أجل امتلاك مدينة القدس أو إبقاء السيطرة عليها

وعلى الأماكن التي ارتبطت بها حياة السيد المسيح (عليه السلام) على الأرض The earthly life of Jesus Christ.

وأما فيليب حتي فيقول "لو نظرنا إليها ووضعناها في إطارها الصحيح، فإن الحركة الصليبية تبدو فصلاً من فصول تاريخ العصور الوسطى، وجزءاً من قصة طويلة تتعلق بالتفاعل بين الشرق والغرب، التي شكلت حروب الفرس والإغريق (الحروب الميدية) في العصور القديمة بدايته، وشكل التوسع الإمبريالي الأوروبي في العصر الحديث نهايته".

وثمة من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حروب دينية بحتة، وأن دوافعها واتجاهاتها دينية خالصة، وأن هدفها الأول والأخير هو تخليص بيت المقدس وكنيسة القيامة من أيدي الغزاة المسلمين.

وأما إرنست باركر[1] وهو أحد مؤرخي الحروب الصليبية، فيحاول في معرض حديثه عن قيامها إيجاد المبررات والتفاسير التي تتلاءم، كما يقول "وروح العصر التي تم إعلانها فيه"؛ حيث يرى في الحروب الصليبية "ذروة الإحياء الديني الذي أخذت بوادره في الظهور منذ القرن العاشر في غرب أوروبا، وأضحى يسيطر على سياسة الكنيسة الغربية ويوجهها في القرن الحادي عشر .... وأنها فصل من أهم الفصول في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب .... وأنه إذا ما اعتبرنا الحروب الصليبية حروباً مقدسة، فلابد من تفسيرها" – على حد قوله – "وفقاً لأفكار العصر الذي تغلبت فيه الروح الدينية والتعلق بالحياة الآخرة؛

---

[1] إرنست باركر؛ الحروب الصليبية. نقله إلى العربية، السيد الباز العريني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت، ١٩٦٧م)، ص ٩-١٠.

فخضعت – أي الحروب الصليبية – بمقتضى ذلك إلى ما يمثل العالم الآخر من سلطة دينية (الكنيسة) .... فهي بذلك ليست إلا نوعاً جديداً من الخلاص، وطريقاً آخر مؤدياً إلى السماء (الجنّة) لابد من اجتيازه، ابتغاء نيل السعادة التامة ومن أجل غفران الذنوب". كذلك يرى فيها بِاركر مظهراً من مظاهر السياسة الخارجية للبابوية "لما تقوم به الأخيرة من توجيه رعاياها المخلصين إلى تلك الحرب الكبرى التي تخوضها النصرانية ضد أعدائها".

وتعد حقبة الحروب الصليبية أحد أهم الفترات في تاريخ العالم، وبخاصة إذا نظرنا إليها من وجهة نظر التاريخ الاقتصادي والثقافة العامة. لأنه ولمدة طويلة استطاعت المشكلة الدينية أن تدفع بالجوانب الأخرى لهذه الحركة المعقدة والمتنوعة إلى الخلف. وكانت فرنسا أول دولة تُدرك الأهمية الكاملة للحروب الصليبية وذلك حينما قامت الأكاديمية الفرنسية The French Academy في سنة (١٨٠٦)، ثم المؤسسة الوطنية الفرنسية The National Institute of France من بعدها بالوعد بتقديم جائزة لأفضل عمل يهدف إلى "دراسة تأثير الحروب الصليبية على الحريات المدنية لشعوب أوروبا، وحضارتها، وعلى نمو المعرفة، والتجارة، والصناعة فيها." ومن الطبيعي – يتابع فَازيلييف[1] القول –"أن يكون من المبكر أن تتم مناقشة هذه المشكلة بشكل كامل في بداية القرن التاسع عشر وهي لم تحل بعد. ولكن جدير

[1]- يُعد A.A.Vasiliev. Vol.2.P.398، أحد أكبر المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وفي العلاقات العربية الإسلامية البيزنطية.

بالملاحظة القول أن عصر الحروب الصليبية لم يعد يُنظر إليه من تلك الزاوية الضيقة المتعلقة بالحركة الدينية التي قامت في العصور الوسطى فقط.

ومع ذلك، تُعد الحروب الصليبية أهم فترة في تاريخ الصراع بين الديانتين العالميتين : النصرانية والإسلام – صراع بدأ منذ القرن السابع – ولكن لم تكن الدوافع الدينية المثالية هي الوحيدة التي تأسست عليها تلك الحروب؛ ذلك أنه "حتى في الحملة الصليبية الأولى والتي عكست بصورة واضحة وجلية المبادئ التي قامت عليها الحركة الصليبية والمتمثلة في انتزاع الأرض المقدسة من أيدي "الكفرة" فإن الأهداف المادية والمصالح الدنيوية كانت واضحة أيضاً. فقد انقسم الصليبيون إلى نوعين : أولئك الذين كانت ميولهم دينية، وأولئك الذين كانت أهدافهم سياسية. ولكن كلما تعمق المؤرخون ودققوا البحث والدراسة في الأوضاع الداخلية للحياة في أوروبا الغربية خلال القرن الحادي عشر، وبخاصة ما طرأ على المدن الإيطالية (بيزا، وجنوا، والبندقية) من نمو اقتصادي آنذاك، زاد اقتناعهم بالدور المهم الذي لعبه العامل الاقتصادي في التحضير للحملة الصليبية الأولى وتنفيذها؛ ذلك أنه في الحملات الصليبية التي تلت كان الجانب العلماني والاهتمامات الدنيوية تبدو أكثر قوة مع قيام كل حملة جديدة حتى إذا كانت الحملة الرابعة بلغت الأطماع الدنيوية ذروتها وحققت نجاحاً ساحقاً على المبادئ البدائية للحركة، وذلك كما اتضح من قيام العناصر الصليبية

لتلك الحملة من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية وتأسيس إمبراطورية لاتينية في سنة (١٢٠٤)."[١]

وأما المؤرخ ستي نسن Stevenson فيقول "إن الحروب الصليبية ما هي سوى حملات عسكرية الغرض منها تأسيس سلطة لاتينية في سوريا والعمل على الحفاظ عليها، وتنتمي إلى فترة امتدت زهاء القرنين؛ الثاني عشر والثالث عشر. شاركت فيها جنسيات متعددة، ولكن أغلبها كان من أوروبا الغربية، وتحالف جميعهم باسم الخضوع للكنيسة اللاتينية وطاعة لها. ثمة ظاهرتان في هذه الحركة يكتنفهما الغموض في الاستخدام الشعبي حين الحديث عن الحروب الصليبية، فالظاهرة الأولى هي أن أوروبا الغربية كانت في حرب مستمرة مع مسلمي الشرق لمدة تقرب من قرنين. وأما الثانية فتتعلق بسوريا التي تُعد المحطة التي تتم منها مراقبة مسار الأحداث؛ ومن ثم فإن الحروب الصليبية تعد فصلاً أساسياً في تاريخ الشرق[٢]."

تلك كانت بعض الآراء ووجهات النظر حول تعريف الحروب الصليبية التي رأيت أن أكتفي بسردها؛ لأن تعريف الحروب الصليبية لم يكن موضع اتفاق بين المؤرخين؛ ذلك أن آراءهم تنوعت واختلفت باختلاف النوافذ التي أطلوا منها على تلك الحركة.ومع ذلك يمكن القول بأن تعريف الحروب الصليبية بشكل عام لا يخرج عن كونه حملات عسكرية خرجت من الغرب الأوروبي لاستعمار الشرق العربي

---

[1]- Vasilliev; History of The Byzantine Empire, Vol.2.P.398
Stevenson, .
[٢]The Crusaders in The East, pp.2,3

يغلفها الدين أحياناً، وتسيطر عليها الأطماع المادية – الاقتصادية والسياسية – في أحيان كثيرة. وسُميت بالصليبية بسبب اتخاذ المشاركين فيها الصليب شعارًا لهم بأمر من البابا أوربان الثاني المسؤول عن قيامها.

❖ مداها:

يمتد المدى الزمني للحروب الصليبية – حسبما تعارف عليه أهل التاريخ – بين عامي (١٠٩٥) وهي السنة التي انطلقت فيها الدعوة إلى قيام الحروبالصليبية في الغرب الأوروبي لاحتلال الشرق الإسلامي، وعام (١٢٩١) وهي السنة التي سقطت فيها مدينة عكا في أيدي المسلمين، وتم فيها طرد الصليبين أخيراً على يد الأشرف خليل بن قلاوون من الأراضي السورية. وعلى كل لم تتوقف محاولات الغرب من أجل استرداد ما تم فقدانه حتى بعد ذلك التاريخ.

وتعد هذه الفترة التي امتدت على مدى حوالي قرنيين من الزمان على درجة كبيرة من الأهمية في النمو والتطور الاجتماعي، والاقتصادي، والمؤسساتي في غرب أوروبا. وكنتيجة لذلك، فقد عكست كل حملة صليبية الظروف السائدة التي كانت تعيشها أوروبا وقت قيام الحملة، وبالتالي فإن نتائج تلك الحملات على أوروبا اختلفت وتباينت وفقاً لما طرأ من تغير على الأحوال في الشرق.

❖ تقسيماتها:

درج المؤرخون على أن يجعلوا للحروب أو الحملات الصليبية أرقاماً؛ فيقولون الحملة الأولى، والحملة الثانية.....الخ. والواقع أن

الحروب الصليبية ما هي سوى تدفق مستمر خلال الجزء الأكبر من القرنين الثاني عشر والثالث عشر ومن ثم فإن إعطاء عدد مختار من هذه الحملات أرقاماً – بغض النظر عما حققته من نتائج – من شأنه أن يحجب هذه الحقيقة. إذ قلما مضى عام دون أن يأتي إلى سوريا الكبرى جماعات جديدة من الغرب الأوروبي وثمة من الحملات من لم تفز بأرقام على الرغم من النجاحات التي حققتها مثل حملة فردريك الثاني سنة(١٢٢٨).

وما جعل الحملات الصليبية تتخذ أرقاماً معينة–إنما يرجع فيما يبدو–إلى:

١- أنها قد أقُرّت في مجمع ديني مثل الحملة الأولى (مؤتمر كلير مونت).

٢- وإما أنها قامت بعد وقوع كارثة، مثل سقوط الرها سنة(١١٤٤)، وسقوط بيت المقدس(١١٨٧).

٣- أو قادها ملوك وأباطرة.

٤- أو لما أحرزته من نجاح أو فشل مثلما حدث في الحملتين الرابعة والخامسة.

وأما تفصيل تلك الحملات فهو كالآتي:

اتجهت أربعة منها نحو بلاد الشام(الأولى، الثانية، الثالثة، والسادسة) واثنتان ضد مصر(الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية(الرابعة) وواحدة ضد تونس(الثامنة).

❖ طبيعتهـــــا:

وأما طبيعتها فهي حروب توسعية استعمارية قام بها الغرب الأوربي بهدف استعمار الشرق العربي، بحجة تخليص الأماكن المقدسة في فلسطين من آيدي المسلمين، وتأسيس مملكة صليبية هناك تُشكل رأس حربة يدعمها الغرب ويستخدمها للتوسع في الشرق في كل الاتجاهات، والحيلولة دون وقوع أي تقارب بين شعوب المنطقة وقياداتها. أي أنها حملات عسكرية خرجت من الغرب لغرض استعمار الشرق، وتحقيق أهداف سياسية واقتصادية ويغلفها الدين كعامل نفساني.

❖مظهـــرهـــا:

وكان المظهر الدولي هو السمة المميزة لها جميعاً – باستثناء حملات الملك الفرنسي لويس التاسع التي جرت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر – فقد كانت حملات فرنسية الصبغة والطابع. إذ لم تكن هذه الحملات مقتصرة على أمة بعينها، أو جنس محدد؛ فقد شارك فيها ألمان وإنجليز وفرنسيين وإيطاليين وغيرهم من شعوب أوربا الغربية، وإن ارتبطت مساهمة أي دولة من تلك الدول في أي حملة من تلك الحملات بالظروف السياسية والاقتصادية التي كانت تعيشها تلك الدولة وقت قيام حملة ما أو الدعوة إليها.

❖دور فرنسا:

ومن الملاحظ أن بذور الحروب الصليبية جرى إلقاؤها في تربة فرنسية، وأن الذين قاموا بالدعوة إليها البابا أوربان الثاني وبطرس الناسك هم من أصل فرنسي، وأنها بدأت واستمرت في جوهرها مشروعاً

فرنسياً، وأن المملكة التي أقامها الصليبيون بفلسطين كانت أيضاً في جوهرها مملكة فرنسية؛ في لغتها وعاداتها وفي دستورها، وفي فضائلها ورذائلها. فمن الطبيعي إذن أن تكون فرنسا مهد الحروب الصليبية؛ فهي الموطن الأصلي للحركة الكلونية التي كانت أول من شجع على حرب المسلمين في إسبانيا، والمكان الذي انبعث منه سلام الله وهدنة الله، والموطن المفضّل للفروسية. وتستطيع فرنسا – أكثر من غيرها من الدول الأوربية – تقديم عدد كبير من النبلاء والأمراء الإقطاعيين العاطلين عن العمل بسبب اتّباع القاعدة الإقطاعية المتعلقة "بتوريث الابن الأكبر"، يضاف إلى ذلك أن فرنسا قاست كثيراً بسبب ما وقع بها من الحروب الخاصة التي كانت تقوم بين السادة الإقطاعيين، وأنها عانت أكثر من غيرها من الدول الأوربية مما حلّ بها من وباء ومجاعة.

دوافع المشاركة في الحروب الصليبية

ولكن لم تكن الدوافع الدينية " المثالية " – كما يصفونها – هي الوحيدة التي اشتملت عليها الحركة الصليبية؛ لأنه حتى في الحملة الصليبية الأولى التي تعكس بصورة أكثر وضوحًا مثاليات الحركة الصليبية المتمثلة في استعادة الأرض المقدسة من أيدي من تصفهم الكنيسة " بالكفرة "، فإن الأهداف العلمانية والأطماع الدنيوية كانت أيضًا واضحة.

ومن ثم يمكن تقسيم دوافع المشاركين في الحركة الصليبية – بشكل عام – إلى نوعين:

- الأول: كان تفكيرهم دينيًا وكذلك كانت مشاركتهم وهم قليلون.

- وأما النوع الثاني فكانت توجهاتهم سياسية وأهدافهم دنيوية اقتصادية وهم كثر.

ذلك أنه كلما زاد البحث و التعمق في دراسة الأوضاع الداخلية للحياة في أوربا الغربية أثناء القرن الحادي عشر، وبخاصة ما طرأ من تغيرات اقتصادية، وازدهار للتجارة و الصناعة، ونمو للمدن في أواخر ذلك القرن، ازداد الاقتناع بأهمية الدور الذي لعبه الدافع الاقتصادي في مشاركة بعض الجهات في الحركة الصليبية و التي يأتي في مقدمتها الجمهوريات الإيطالية جنوا وبيزا و البندقية التي كانت دائمًا تضع تحقيق مصالحها الاقتصادية فوق كل اعتبار آخر، وهو ما بدا واضحًا في الإعداد وتنفيذ الحملة الصليبية الأولى فضلاً عن وضوح الدافع السياسي أيضًا. وهنا يصح التأكيد على ازدياد المظهر العلماني والاقتصادي وتناقص الدافع الديني في الحملات الصليبية الأخرى التي تلت وبصورة أكثر وضوحًا – باستثناء حملات ملك فرنسا القديس لويس – حتى تم أخيراً من خلال الحملة الصليبية الرابعة احتلال القسطنطينية سنة (١٢٠٤)، واسقاط الإمبراطورية البيزنطية وتأسيس إمبراطورية لاتينية في محلها دامت حتى سنة (١٢٦١).

إن الدوافع الرئيسة وراء قيام البابوية بالدعوة للحركة الصليبية وتبنيها لها ورعايتها تكمن في تحقيق مجموعة من الأهداف يأتي على رأسها :

١- نشر النصرانية وتنصير المشرق العربي.

٢- إعادة كنيسة القسطنطينية المارقة – كما يصفونها – إلى حظيرة الكاثوليكية، وتوحيدها مع كنيسة روما، وبذلك تسود الكاثوليكية العالم، وتصير الزعامة العالمية لروما من دون منازع.

٣- تحرير القبر المقدس من أيدي المسلمين مهما كلّف ذلك من ثمن وبأي وسيلة.

وأما المدن الإيطالية جنوا وبيزا و البندقية فقد سبقت الإشارة إليها؛ إذ كانت مشاركتها اقتصادية مادية بحتة.

وأما مشاركة الفرسان فكانت بدافع إشباع نزعتهم القتالية، وفي الوقت نفسه تحقيق ما ينزع إليه الجانب الروحي لديهم من بلوغ الفردوس عن طريق ما أوحت الكنيسة به إليهم وهو اقلاعهم عن محاربة بعضهم و التوقف عن شن الحروب الخاصة وتوجيه ضراوتهم ضد المسلمين في حرب قالت لهم الكنيسة إنها مقدسة.

وأما النبلاء فقد دفعهم إلى المشاركة تحقيق مكاسب سياسية؛ وأفضل مثال على ذلك ما صرّح به الأمير النورمندي بوهيموند الذي قال أنه شارك من أجل إقامة إمارة له في المشرق العربي. وأما السبب وراء مشاركة العديد منهم فيرجع إلى نظام الوراثة الذي كان سائدًا في الغرب آنذاك و الذي يقضي بأن يرث الابن الأكبر الإرث كله دون سائر الأبناء.

وأما الطبقات الأخرى فقد انحصرت دوافعهم في الأمل في تحسين أوضاعهم الاجتماعية و الاقتصادية على الرغم من تنوع أسباب

مشاركتهم؛ فمنهم من شارك هروبًا من سداد دين مستحق، وآخرين للإفلات من تنفيذ عقوبة، ومنهم من شارك لأنه ليس لديه شيء أفضل يقوم به – أي بدافع الفضول، ومنهم من جاءت مشاركتهم بسبب الأوضاع السيئة التي كانوا يعيشونها في ظل النظام الإقطاعي بشكل عام.

وهكذا، يبدو واضحًا، حتى ولو سلمنا باشتراك هؤلاء جميعًا في الشعور الديني العام، فإن دوافعهم وأهدافهم و الأسباب التي دفعت بهم للمشاركة في الحروب الصليبية كانت مختلفة تماماً.

أسباب قيام الحروب الصليبية:

وأما أسباب قيام الحروب الصليبية من وجهة نظر الغرب فيمكن تقسيمها إلى نوعين: أسباب مباشرة تاريخية، وأخرى مباشرة غير تاريخية. فأما الأسباب التاريخية فيمكن حصرها في :

أ- ظهور الإسلام وتوسع العرب المسلمين في حوض البحر المتوسط.

فمنذ أول ظهور لهم على مسرح أحداث التاريخ العالمي في القرن السابع الميلادي، استطاع العرب وبسرعة فائقة انتزاع سوريا وفلسطين وفتح بيت المقدس وبلاد الرافدين وكانت جميعها تخضع لسيادة الإمبراطورية البيزنطية. ثم لم تلبث أن وقعت في أيديهم في سنة (٦٣٨ – ٦٣٩) المدن و المعاقل المهمة مثل ماردين و الرها و ميافارقين من مدن آسيا الصغرى. ثم استولى العرب على مصر وكل الشمال الأفريقي في الفترة من سنة (٦٤١ حتى ٧٠٨). ثم بعد ذلك عبروا مضيق جبل طارق وفتحوا إسبانيا التي كانت تحت حكم القوط الغربيين، وقاموا في النصف الثاني من القرن السابع وبداية القرن الثامن بحصار القسطنطينية العاصمة البيزنطية مرتين. وفي القرن التاسع فتح العرب جزيرة كريت، وأتموا في بداية القرن العاشر السيطرة على جزيرة صقلية وعلى الجزء الأكبر من الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا.

لقد كانت هذه الفتوحات على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للأوضاع السياسية والاقتصادية لأوروبا الأمر الذي دفع المؤرخ هنري بيرين إلى أن يضع نظريته الشهيرة التي يعزو فيها تدهور الأوضاع الاقتصادية و التجارية في أوروبا إلى سيادة العرب المسلمين على حوض

البحر المتوسط الذي تحوّل من جراء ذلك إلى " بحيرة إسلامية Moslem lake" بعد أن كان و لزمن طويل " بحيرة رومانية Roman lake" أو ما كان يدعى " بحرنا Mare Nostrum".

ب- نهوض الإسلام من جديد على يد الأتراك السلاجقة.

فمنذ اعتناقهم الإسلام في مطلع القرن الحادي عشر، ثم بعد ذلك تحررهم من تبعية الغزنويين وفرض سيادتهم على الخلافة العباسية، بدأ السلاجقة في التوسع في آسيا الصغرى على حساب الإمبراطورية البيزنطية؛ فاستولوا على مدينتي آني وقارس (قرص) سنة (١٠٦٥)، وهي من المدن الأرمنية المهمة، الأمر الذي فتح الطريق أمامهم للتوغل في الأناضول.

وفي سنة (١٠٧١) التقت الجيوش البيزنطية بالسلاجقة في معركة هي الأشهر في تاريخ العلاقات البيزنطية الإسلامية. وقعت هذه المعركة في مانزيكرت أو ملاذ كرد شمالي بحيرة فان، وتحطمت فيها قوة البيزنطيين العسكرية الأمر الذي ساعد السلاجقة على سيادتهم على كامل آسيا الصغرى تقريبًا، وترتب على تلك المعركة شل حركة بيزنطة عسكريًا واقتصاديًا الأمر الذي دفع حكامها إلى الاستنجاد بأوروبا لوقف تقدم السلاجقة و المساعدة في الدفاع عن حدود الإمبراطورية؛ طلبٌ أحسن البابا أوربان الثاني استغلاله في حشد طاقة الجماهير الأوربية. إذن تُعد خسارة البيزنطيين في مانزيكرت من الأسباب التاريخية المباشرة في قيام الحروب الصليبية من وجهة نظر الغرب، وذريعة اعتمدت الكنيسة عليها كثيرًا في الدعوة لتلك الحروب

وتنفيذ أهدافها الاستراتيجية بعيدة المدى. ولهذه الأسباب كان من الضروري أن يظل الاستيلاء على بيت المقدس وطرد المسلمين منه هدفًا لتحقيق أطماع نصارى الغرب، ومن الطبيعي أن تتعلق الكنيسة به، وتحاول أن تسير به قدمًا، وذلك لحرصها على تحقيق حلمها بقيام كنيسة عالمية تخضع لسلطانها.

وأما الأسباب المباشرة الأخرى فيمكن حصرها في :

١- بلوغ الكنيسة درجة كبيرة من القوة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر بسبب ما تعرضت له من هزة إصلاحية عنيفة وشاملة على يد بعض رجال الدين الإصلاحيين بلغت ذروتها في عهد كل من البابا غريغوري السابع (١٠٧٣– ١٠٨٥) وأوربان الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩)؛ فقد أصبحت بابوية قوية ومتسلطة، وصار لها من النفوذ و السيادة ما جعل الجميع يخشونها ويأتمرون بأمرها ولا يجرؤون على مخالفتها.

٢- انتشار التقوى و الروح الدينية بشكل واسع آنذاك في الأوساط الشعبية، والإيمان بالخرافات، والشعور بالذنب، والتفكير الجدّي في التكفير عن تلك الذنوب سواء بالقيام بأعمال روحية جليلة كالاشتراك في حرب قيل أنها مقدسة أو بالحج؛ كانت من الأسباب التي دفعت بالجماهير إلى المشاركة في الحركة الصليبية.

٣- نمو المدن وازدهار التجارة و الصناعة في الفترة التي سبقت الدعوة للحركة الصليبية.

٤- الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الصعبة التي كانت تعيشها طبقات المجتمع الغربي – وبخاصة في فرنسا – من جرّاء سيادة النظام الإقطاعي وما يتصل به من حروب خاصة.